

صفحات

من تاريخ العرب الحديث

١٢٥٨ - ١٩١٦ م

الدكتور

محمد عصفور سلمان

المطبعة المركزية / جامعة ديالى
العراق – ديالى طريق بغداد / بعقوبة القديم



اسم الكتاب: صفحات من تاريخ العرب الحديث ١٢٥٨-١٩١٦ م
المؤلف: الدكتور محمد عصفور سلمان
عدد النسخ: ١٠٠٠
تنفيذ: المطبعة المركزية / جامعة ديالى
سنة الطبع: ٢٠١٤ م – ١٤٣٥ هـ
تصميم: أزهر نذير حميد
الايمل:
central_printing2008@yahoo.com

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للمطبعة
المركزية جامعة ديالى وللمؤلف ويحظر طبع أو تصوير أو
ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله
على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الحاسوب أو برمجته على
اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد (٦٩) لسنة (٢٠١١)

فهرس المحتويات

الصفحة

الموضوع

المقدمة ١١

الفصل الأول سقوط الدولة العباسية وظهور الكيانات المحلية في الوطن العربي... (١٣-٣٩)

- تمهيد..... ١٣
- التوسع المغولي في العراق وبلاد الشام ١٤
- الجلانيون ١٦
- التيموريون ١٧
- القره قوينلو ١٩
- الاق قوينلو..... ٢٠
- الصفويون ٢١
- دولة المماليك في مصر ٢٢ - ٣٤
- الممالك البحرية ٢٥
- الممالك البرجية ٣١
- الكيانات السياسية المحلية في المغرب العربي ٣٥-٣٩
- بنو حفص ٣٥
- بنو عبد الواد ٣٧
- بنو مرين..... ٣٨

الفصل الثاني : الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية..... ٤٣-٧٥

- نشوء الدولة العثمانية ونموها ٤٣
- الصراع الصفوي - العثماني. ٤٦
- الاحتلال العثماني للعراق..... ٤٨
- الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر..... ٥١
- الاحتلال العثماني لأقطار المغرب العربي..... ٥٥
- ظهور الإمارات المحلية في الوطن العربي خلال العهد العثماني..... ٥٨
- الجليليون في الموصل..... ٥٨
- آل ظاهر العمر في فلسطين ٦١
- آل معن في لبنان..... ٦٣
- آل العظم في سوريا..... ٦٤
- القرقلبيون في طرابلس المغرب (ليبيا)..... ٦٥
- الأسرة الحسينية في تونس..... ٦٦
- غزوات نادر شاه للعراق..... ٦٦
- حصار كريم خان الزند للبصرة..... ٧١

الفصل الثالث : الاستعمار الأوربي للوطن العربي.....٧٩-١٠٦

- الحملة الفرنسية على مصر.....٧٩
- الاحتلال الفرنسي للجزائر.....٨٤
- الحماية الفرنسية والاسبانية للمغرب.....٨٨
- الاحتلال الفرنسي لتونس٩٥
- الاحتلال البريطاني لمصر وعدن.....١٠٠
- الاحتلال الايطالي لليبيا.....١٠٣

الفصل الرابع: الحركات والثورات التحررية في الوطن العربي في القرن التاسع عشر.....١٠٩-١٢٨

- الحركة المهدية في السودان.....١٠٩
- الحركة السنوسية في ليبيا.....١١٣
- ثورة الأمير عبد القادر الجزائري.....١١٥
- الثورة العربية في مصر.....١٢١

الفصل الخامس : الوطن العربي في عهد الإصلاحات ((التنظيمات)).....١٣١-١٤٤

- إصلاحات محمد علي باشا في مصر.....١٣١
- إصلاحات السلطان محمود الثاني.....١٣٤
- إصلاحات مدحت باشا في العراق.....١٣٦
- إصلاحات خير الدين التونسي.....١٤٠

الفصل السادس : اتجاهات حركة النهضة العربية في الوطن العربي.....١٤٧-١٦٤

- تمهيد.....١٤٧
- المفكرون والمصلحون في الوطن العربي
- رفاة رافع الطهطاوي.....١٤٨
- فرح أنطوان.....١٥٠
- محمد عبده.....١٥٢

- نموذج للجمعيات والمؤتمرات في الوطن العربي والثورة العربية الكبرى.

- جمعية بيروت السرية.....١٥٤
- الانقلاب العثماني.....١٥٦
- المؤتمر العربي الأول في باريس.....١٥٩
- الثورة العربية الكبرى.....١٦٢

فهرس المصادر والمراجع.....١٦٥

الفصل الأول

سقوط الدولة العباسية وظهور الكيانات المحلية في الوطن العربي.

- تمهيد.
- التوسع المغولي في العراق وبلاد الشام.
- الجلائريون.
- التيموريون.
- الألق قوينلو.
- القره قوينلو.
- الصفويون.
- دولة المماليك في مصر.
- المماليك البحرية.
- المماليك البرجية.
- الكيانات السياسية المحلية في المغرب العربي.
- بنو حفص.
- بنو مرين.
- بنو عبد الواد.

((المقدمة))

يتناول الكتاب ، بشكل مختصر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث منذ التوسع العثماني عام ١٥١٦ حتى قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ ويتضمن دراسة أوضاع الوطن العربي خلال المدة المذكورة. وليس هناك من شك في إن لهذه المدة الطويلة من تاريخ العرب الحديث أهمية كبيرة في فهم التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإداري للمجتمع العربي. وكذلك لفهم الاتجاهات والتيارات الفكرية المعاصرة في الوطن العربي وكيف نشأت وتطورت.

اعتمدت في إعداد الكتاب على مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ الوطن العربي الحديث، وتاريخ الدولة العثمانية. كون الأخيرة قد فرضت سيطرتها على المنطقة العربية لمدة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون ولذلك فانه من الضروري تناول تاريخ نشوء وتطور الدولة العثمانية وأسباب توجهها للسيطرة على البلاد العربية، وان النظم الإدارية للدولة العثمانية قد أصبحت أساساً للتشكيلات الإدارية في الوطن العربي حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ومجيء الاحتلال الأجنبي بل وحتى بعد حصول الأقطار العربية على الاستقلال.

قسم الكتاب إلى ستة فصول ، تناول الفصل الأول سقوط الدولة العباسية وظهور الكيانات المحلية في المنطقة العربية، أما الفصل الثاني فتضمن الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية ، والفصل الثالث تضمن الاستعمار الأوربي للوطن العربي، وتناول الفصل الرابع الحركات والثورات التحريرية في الوطن العربي في القرن التاسع عشر ، وفي الفصل الخامس الوطن العربي في عهد التنظيمات، أما الفصل السادس والأخير فشمّل اتجاهات حركة النهضة العربية في الوطن العربي.

ولا يفوتني أن اذكر إن الكتاب اعد على وفق المفردات التي أعدتها الهيئة القطاعية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ليكون منهجاً لطلبة المرحلة الثانية - قسم التاريخ - كليات التربية.

ولقد وضعت بعض الهوامش ليستطيع الطالب وقارئ التاريخ الاطلاع بشكل واسع عن تلك الموضوعات التي تتضمنها الفصول ومن مصادرها ... ومن الله التوفيق.

تمهيد

كانت الدولة العباسية قد مرت في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي بحالة من الضعف والتداعي ، وبشكل خاص في عهد الخليفة المستنصر بالله (١٢٢٦ - ١٢٤٢) م إذ نجد أن الخليفة العباسي لم يضع في حساباته اهتماماً لمواجهة الخطر المغولي الزاحف من الشرق ، وكذلك طبيعة الصراعات التي حدثت في مصر والموقف من تحديات الصليبيين من أوربا هذا وقد استنزفت الهجمات الصليبية الكثير من إمكانات وطاقت جيش الدولة الإسلامية.

وقد بدأ التهديد المغولي لتخوم الدولة العباسية عام ١٢٢١م وارتبطت نتائجه بمصير الأقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيما دولة خوارزم التي كانت بمثابة السد الذي يدرأ الأخطار القادمة من الشرق، لان الخليفة العباسي لم يكن بإمكانياته العسكرية والسياسية المحدودة يستطيع مواجهة الإمبراطورية المغولية التي ضمت اغلب بلاد الصين وتركستان ومقاطعات من الهند وأجزاء كبيرة من روسيا وإيران واسيا الصغرى وكانت تملك مصادر هائلة من الرجال والسلاح والمال.

تمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وقتل زعيمها جلال الدين في عام ١٢٢٠م، ولم يظهر الخلفاء العباسيون المتأخرون اهتماماً جدياً بالخطر الداهم المحقق بادئ الأمر، ولم يدركوا عميقاً طبيعة ذلك الخطر الذي كان يتهدد بلادهم، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته او درئه أو الاحتياط له.

وكان كل ما فعله الخليفة هو جمع قوات بصورة مرتجلة وإرسالها إلى مواطن الخطر القريبة ، ثم تسريح أكثر الجنود بعد تراجع العدو والانتظار إلى حين ظهور الخطر من جديد، في وقت كان المغول يشكلون أعظم خطر يهدد كيان الدولة والأمة. وقد ظهرت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد بعد أن تولى المستعصم بالله الخلافة (١٢٤٢ - ١٢٥٨) م وقد تبوأها في أحلك ظرف واجهته الدولة العباسية ولم يكن لهذا الخليفة شخصية كفوءة تؤهله لحكم البلاد وزعامة العالم الإسلامي ، فقد كان "الين العريكة

مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير عارف بمشاكل عصره، غير مهيب في النفوس" وفي عهده تفرق الجند بعد أن قطعت أرزاقهم فلحق بعضهم بالشام واضطر بعضهم إلى التسول. وبذلك ضعفت إمكانات البلاد العسكرية وقلت أعداد الجيش في الدولة العباسية فأصبح مركز الخلافة الإسلامية في بغداد، مهدداً بهجمات المغول وإسقاط الخلافة العباسية بعد توجه تلك القوات نحو الغرب.

التوسع المغولي في العراق وبلاد الشام

المغول أقوام همجية رعوية استوطنت مناطق أواسط آسيا ثم اندفعت شرقاً وجنوباً في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. واستطاعت قوات المغول السيطرة على مناطق واسعة من الصين وبلاد ما وراء النهر وبخارى وسمرقند وخراسان وأفغانستان، كما امتد نفوذهم نحو جورجيا وأرمينيا وبذلك كونوا إمبراطورية واسعة آنذاك.

وفي عام ١٢٥٣م أرسل الإمبراطور المغولي مانغوخان القائد هولوكو لفتح آسيا الغربية، فأخذت جيوشه تتحرك من مختلف المواقع التي كانت ترابط فيها، وفي خلال تقدمه البطيء دمر قلاع الإسماعيلية واسر زعيمها خورشاه في عام ١٢٥٦م ثم وصل همدان في العام التالي. ومن هناك أرسل إلى الخليفة العباسي يتهدده ويتوعده مطالباً إياه بالتسليم ولكن الخليفة العباسي رفض ذلك الطلب.

وفي أوائل محرم (٥٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) اشتبكت القوات العباسية يقودها مجاهد الدين أيبك، بالقوات المغولية عند الدجيل، بين بغداد وسامراء وانتهت المعركة

بتحطيم الجيش العباسي كما تقدم هولاءكو من خانقين بالجيش المغولي المؤلف من ٢٠٠٠٠٠٠ محارب إلى بغداد، فنزل الجانب الشرقي منها في أواسط محرم، وأطبقت قواته عليها من كل الجهات وبدأ القتال في أواخر محرم، ونجح المغول في اختراق سور بغداد في بعض المواقع.

وفشلت محاولات الخليفة العباسي المستعصم بالله في التوصل إلى حل سلمي فاضطر الخروج بأسرته لمقابلة هولاءكو فحجزوا ثم قتلوا. ودخل الغزاة المغول بغداد في الخامس من صفر ٥٦٥٦هـ / ١٤ تشرين الأول ١٢٥٨م وفتكوا بأهلها سبعة أيام أو تزيد، ولم يفرق الجيش المغولي فيها بين الرجال والنساء والأطفال حتى لم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، وأضرمت النار في معظم البلد واستولى الخراب على المدينة وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلوث، ويقدر عدد من قتل من أهل بغداد بما يزيد على ٨٠٠٠٠٠٠ شخص. وربما كان في ذلك الرقم شيء من المبالغة إلا انه يدل على حجم المذبحة المريعة التي تعرض لها سكان بغداد. وبعد انتهاء عمليات الاستباحة، أمر هولاءكو بإصلاح بعض ما خرب وترميم الأسواق ورفع جثث القتلى من الناس والحيوان، ورحل هولاءكو عن المدينة بعد أن فوض أمرها إلى جماعة معينة لإعادة تنظيمها، وابقى على التشكيلات الإدارية كما كانت في العصر العباسي الأخير. ووضع على رأس الإدارة بعض المسؤولين من العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكون مجموعة من الإداريين المغول. وأبقى فرقة من الجيش المغولي مؤلفة من ثلاثة آلاف محارب حامية للمدينة. وأرسلت قوات مغولية إلى أنحاء العراق الأخرى فأخضعت مدنه وقراه، ورفضت اربيل وواسط الخضوع للمحتل وأبدت من المقاومة ما دفع بالغزاة إلى تشديد حصارهم عليهما فكانت خسائر أبنائها نحو أربعين ألف قتيل.

ورغم ثورة أهل الموصل على المحتلين المغول عام ١٢٦٠م، إلا إن القوات المغولية استطاعت فيما بعد سيطرتها على أغلب مناطق العراق، وقتل عدد كبير من سكانه وضربت أجزاء كبيرة من البلاد. وقتل معظم أفراد الأسرة العباسية ما عدا أنفراً

قلائل استطاعوا الفرار والنجاة ومنهم أبو القاسم احمد بن الظاهر بأمر الله الذي أعلنه سلطان مصر الظاهر بيبرس عام ١٢٦٠م خليفة باسم المستنصر بالله. ولم تكن له من السلطة إلا الاسم. وبعد احتلال المغول للعراق اتجهت قواتهم إلى بلاد الشام ومصر لضمهما إلى إمبراطوريتهم.

عهد الاحتلال الجلائري (١٣٣٧ - ١٤١١)م

لم يستمر حكم الايلخانيين أكثر من قرن من الزمن، وكان من ابرز أسباب ضعفهم هو الصراع على السلطة بين أمراء البيت المالك، وقد ظهرت بداياتها مع موت إباقا بن هولاقو عام ١٢٨٢م مما فسح المجال لتدخل أمراء المغول. وكانت إطماع هولاء الأمراء سبباً في قيام الفتنة في أواخر ذلك العهد ثم انهياره. فلما مات الايلخان التاسع أبو سعيد عام ١٣٣٥م ولم يخلف وريثاً تسابق الطامعون إلى استغلال الفرصة للوصول إلى الحكم، وكانت نتيجة ذلك اندلاع حرب أهلية عمت أرجاء البلاد وانتهت عندما تسلمت الحكم الأسرة الجلائرية في عام ١٣٣٧م.

أسس الشيخ حسن بن حسين الجلائري، المشهور ب (حسن الكبير) الأسرة التي أصبح العراق عام ١٣٣٧م جزءاً من ممتلكاتها. وجلائر هي إحدى القبائل المغولية التي ارتبطت بجنكيزخان ونال زعمائها نفوذاً لديه. وبرز منهم أمراء شغلوا مراكز مهمة في الجيش المغولي.

استقر حسن الجلائري في بغداد عام ١٣٣٨م وأعلن استقلاله عن الايلخانيين وأصبحت بغداد طوال عهده وجانب من عهد ابنه عاصمة للدولة التي شملت سيطرتها فضلاً عن العراق، الجزيرة ديار بكر وأذربيجان والجنال. وقد شهد العراق لاسيما بعد انهيار دولة الايلخانيين في أذربيجان وخراسان عام ١٣٥٣م، حقبة من الهدوء والاستقرار وازدياد الاهتمام بالإدارة والعمران.

إن مدة الاستقرار التي شهدتها العهد الجلائري لم تدم طويلاً ، فبعد تولي جلال الدين حسين الحكم، إذ كان ضعيفاً محباً للهو و المجون فساعد ذلك على انتشار الفتن والاضطرابات وتسلط الأمراء على شؤون الحكم. وظهر نزاع على السلطة بين الإخوة الثلاثة، حتى تمكنت قوات احمد من قتل الشيخ علي في معركة وقعت عام ١٣٨٣م ثم عقد صلح بين احمد وبايزيد وتقاسموا فيه منطقة نفوذهم.

الغزو التيموري

كان للنتائج التي أسفرت عنها صراعات الإخوة الجلائريين على السلطة أسوأ الأثر في أحوال العراق الإدارية والسياسية. فبعد سنوات قليلة وصلت طلائع الموجة المغولية الثانية. وكان تيمورلنك زعيم هذه الموجة الأخيرة التي بدأت اندفاعها من أطراف مدينة سمرقند في عام ١٣٦٩م، ولم ينته القرن الرابع عشر حتى اجتاحت القسم الغربي من أواسط آسيا وإيران والعراق والأناضول والهند.

وأطبقت طلائع القوات التيمورية على تبريز في عام ١٣٨٦م. تم زحف تيمورلنك إلى بغداد عام ١٣٩٣م ودخلها بعد أن هرب السلطان احمد إلى الشام. ونهب الغزاة المدينة. وانتشرت قوات تيمورلنك في العراق واحتلت معظم مدنه، ولكن في نهاية عام ١٣٩٤م استغل السلطان احمد انشغال تيمورلنك في حروبه. استطاع بمساعدة برقوق سلطان المماليك في مصر، وبدعم القبائل العربية من استعادة بغداد وطرد الوالي التيموري، كما نجح في إعادة سلطته إلى بقية المدن العراقية. إلا انه لم يشعر بالاطمئنان، وظل هاجس تهديد تيمورلنك مسيطراً عليه.

وفي عام ١٤٠١م أحكمت قوات تيمورلنك السيطرة على بغداد، وبعد صمود دام أربعين يوماً دخلتها القوات الغازية، وجرت مذبحة عامة للسكان واستبيحت المدينة ثلاثة أيام أقيمت خلالها عدة أبراج من رؤوس القتلى. ورافق عمليات القتل تهديم المنشآت العمرانية، ثم عاد إلى تبريز. بعد أن الحق العراق بالجزء الغربي من إمبراطوريته بإدارة ابنه ميران شاه، كما ولى على بغداد حفيده أبا بكر.

أحدث غزو تيمورلنك الثاني للعراق فوضى عارمة في البلاد استمرت أربع سنوات وأدت في النهاية إلى انحسار النفوذيين التيموري والجلائري. فقد اغتتم السلطان احمد فرصة زحف تيمورلنك إلى الأناضول عام ١٤٠٢م فجمع أتباعه وعاد إلى العراق عن طريق الفرات إذ التحق به عدد آخر من الأتباع ونجح في استعادة بغداد ومد سلطانه على المنطقة الوسطى من العراق وحاول إعادة الحياة إلى العاصمة ولكن سلطته كانت ضعيفة، كما تواصلت هجمات القوات التيمورية وتمرد الأمراء عليه، وأعلن حليفه قره يوسف انشقاقه، ونجح في الاستيلاء على بغداد في أواخر عام ١٤٠٢م مجبراً السلطان احمد على الفرار من جديد إلى الشام، وفي السنة التالية هاجمت قوات تيمورلنك بغداد للمرة الثالثة وفر قره يوسف إلى الشام إذ تمت تسوية خلافاته مع السلطان احمد في المنفى.

إن السياسة التي انتهجها تيمورلنك طوال السنوات ١٣٩٣ - ١٤٠٥م. كانت لها آثار سيئة في أوضاع العراق. فقد أودى الغزو بحياة عدد كبير من الناس، كما سبب في تشريد عدد آخر من السكان، وتهجير الخبرات العلمية والحرفية إلى ما وراء النهر. وكان أثرها واضحاً في خفض عدد السكان وتدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية في العراق.

توفي تيمورلنك في عام ١٤٠٥م أثناء زحفه لغزو الصين. وتلت وفاته اندلاع الاضطرابات في أرجاء مملكته. لذا تشجع السلطان احمد وقره يوسف للعودة إلى العراق، ولكن الخلاف دب بينهما ثانية فوقعت معركة عام ١٤١٠م بين قوات الطرفين ولقي السلطان احمد مصرعه فيها، وتقدم جيش قره يوسف بقيادة ابنه محمد شاه إلى بغداد ودخلها في عام ١٤١١م وكان ذلك بداية لعهد دولة الخروف الأسود التركمانية (القره قونيلو).

دولة القره قونيلو (١٤١٠ - ١٤٦٧) م

أصبح العراق جزءاً من دولة عاصمتها تبريز عرفت في التاريخ باسم (الخروف الأسود) وكانت تسمى "البارانية" نسبة إلى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وسميت كذلك لاشتغالها باقتناء (الشياه السود) أو لان رايتها تحمل شارة (الخروف الأسود).

استولى محمد شاه على بغداد عام ١٤١١م وتمتع باستقلال إداري واسع طوال ولايته التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً. ولكن والده قره يوسف لم يول اهتماماً بالعراق حتى وفاته عام ١٤٢٠م. إذ كان معنياً بتوسيع ممتلكاته ومقارعة بقايا الإمبراطورية التيمورية في إيران.

ولقد احدث موت قره يوسف ارتباكاً وفوضى واسعة شارك فيها أولاده، ولقد تعرضت بغداد في عام ١٤٣٤م إلى هجوم واسع شنه اسبان بن قره يوسف في محاولة لانتزاع الولاية من أخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط وقتل محمد شاه.

حكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته عام ١٤٤٤م فنصب أنصاره ولده الصغير فولاذ حاكماً، ولكن السلطان جهان شاه حاكم إمارة القره قونيلو طمع في مد سيطرته المباشرة على بغداد فقاد جيشه وحاصر العاصمة في عام ١٤٤٥م مدة ستة أشهر تمكن في نهايتها من دخولها فخربها وسجن فولاذ الذي توفي في سجنه، وربطت بغداد مباشرة بتبريز.

أطمعت اضطرابات الأوضاع، والصراع المتواصل بين القره قونيلو وبقايا الإمبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم أبيه السلطان جهان شاه، فسار الأخير إلى بغداد وحاصرها في عام ١٤٦٤م مدة تزيد على السنة اضطرت فيها السكان إلى أكل الجيف والبحث عن فئات الطعام في المزابل، وتعرضت مع ضواحيها

إلى خراب مدمر. وأخيراً نجح جهان شاه في دخول بغداد في ١٤٦٦م إذ أمر بإعدام ابنه، وولى حاكم آخر في بغداد وعاد هو إلى تبريز.

واغتم اوزون الطويل زعيم إمارة تركمانية أخرى مركزها ديار بكر حالة الانشقاق الذي حدث بين جهان خان وولده، وما رافق ذلك من اضطرابات، فمد سلطانه إلى المناطق المجاورة للقره قوينلو. وفي المعركة التي جرت بين الأمارتين في ديار بكر عام ١٤٦٧م دحر جهان شاه ولقي مصرعه. ثم سار حسن الطويل بعد انتصاره إلى بغداد وحاصرها ولكنه فشل في دخول العاصمة فاضطر إلى رفع الحصار والتوجه إلى تبريز للقضاء على حسن علي الذي تولى السلطة بعد مقتل والده جهان شاه، وفر حسن علي إلى همدان إذ انتحر عام ١٤٧٨م واستولى حسن الطويل على العاصمة تبريز وبذلك انتهت إمارة القره قوينلو.

دولة ألاق قوينلو (١٤٦٧-١٥٠٨)م

وهي من بين الإمارات التي أقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية إلى أذربيجان وجهات الأناضول في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء (الشياه البيض). وكان لها عند بداية ظهورها قوة و نفوذ، نظراً لإتباعها سياسة مؤيدة لتيمورلنك، وحصل زعيمها قره عثمان على مكانة مرموقة، وثبت أقدام إمارته في ديار بكر. وفي عهد حفيده حسن الطويل ازدادت قوة الإمارة ونافست غريمته إمارة القره قوينلو، وتمكنت من القضاء عليها في المعركة الحاسمة التي دارت في ديار بكر عام ١٤٦٧م ، حينما صرع عاهلها جهان شاه، وضم لإمارته ممتلكاتها كافة ومنها العراق.

تولى ولاية بغداد في العهد الجديد معضود بن حسن الطويل، ونال العراق شيئاً من الاستقرار والعناية، ولكن سرعان ما شاع الارتباك في الإمارة اثر وفاة حسن الطويل عام ١٤٧٧م، وفي عهد خليفته خليل الذي لم يدم سوى اقل من سنة اظهر فيها تعسفاً وانغماساً باللهو والترف فاندلعت حركات التمرد أثرت على الوضع السياسي للإمارة. حتى تمكن الأمير يعقوب من إعلان نفسه سلطاناً في تبريز عام ١٤٧٨م وظل يحكم حتى عام ١٤٩٠م فتمتعت الإمارة خلال تلك المدة بشيء من الاستقرار.

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات، وكثرت الحروب الأهلية بين الطامعين من السلاسة الحاكمة، وادى ذلك إلى تفكك سلطة ألاق قوينلو. وأصبح العراق إقليمياً مهماً. وفي عام ١٤٩٥م أعلن احمد نفسه سلطاناً ، ولكن حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر قتل في نهايتها على أيدي الأمراء الآخرين. وأعلن ثلاثة من الأمراء في وقت واحد أنفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة.

لقد كانت تلك المنازعات والحروب الأهلية التي عمت الإمارة قد أدت إلى استنزاف خيرات العراق، وقد أدت المنازعات أيضاً إلى انهيار ألاق قوينلو على يد طامع جديد من سلالة أخرى هو إسماعيل أصفوي مؤسس الدولة الصفوية.

الصفويون

ينتمي الصفويون في الأساس إلى أسرة تركمانية صوفية تنتسب إلى الشيخ صفي الدين المتوفي عام ١٣٣٤، واشتهر هذا الشيخ في اردبيل بطريقته الصوفية التي حققت نفوذاً واضحاً في أنحاء أذربيجان .

استغل إسماعيل بن حيدر أصفوي حالة الفوضى و التمزق في حكومة ألاق قوينلو، وخلال مطلع القرن السادس عشر الميلادي برز الصفويون وخلال سنوات قليلة من استيلائهم على أذربيجان والدخول إلى تبريز تحققت لهم سلسلة من

الانتصارات مكنتهم من مد حكمهم على أرجاء إيران. ثم استولى إسماعيل الصفوي على ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و١٥٠٧م ثم وجه أنظاره إلى العراق لما يحتله القطر من إمكانات اقتصادية ومركز مهم بالنسبة للعالم الإسلامي.

تقدم الشاه إسماعيل الصفوي إلى بغداد بجيش كبير وأرسل في المقدمة فرقة من الفرسان ((القرلباش)) يقودها حسين لاله. وتقدمت قوات الغزو من كرمنشاه إلى خانقين، وبالرغم من إن حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات، إلا انه وجد نفسه اضعف من أن يستمر في الدفاع عن المدينة، لاسيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي أرعبتها أنباء الفظائع التي كان ينزلها إسماعيل بالقوى التي تقف أمامه، لهذا سارع إلى الفرار قاصداً مدينة حلب ومن هناك اتجه إلى ديار بكر.

ودخلت قوات حسين لاله بغداد بدون مقاومة، وفي عام ١٥٠٨م دخلها الشاه إسماعيل، وعين خادم بيك على المدينة وأطلق عليه لقب ((خليفة الخلفاء)) في محاولة منه لفرض نفوذه على العالم الإسلامي، وبالرغم من إن الشاه دخل بغداد سلماً، فانه أمر بمذبحة راح ضحيتها عدد من السكان دون مبرر. ثم غادر الشاه بغداد، وبعد أن ضم البصرة إلى ممتلكاته، سلك طريق تستر والحويزة إذ قضى على الإمارة المشعشعية هناك ومد سيطرته على الاحواز كلها.

الممالك أصلهم ... وتسميتهم

تكونت الممالك من أسرى الحروب والعبيد الذين تم شراؤهم من أسواق النخاسة ليتم تنشئتهم نشأة حربية، ومن كان يبرز من بينهم بكفايته العسكرية يصبح اميراً لآل ف مقاتل .

اخذ عددهم يتضاعف بمصر بسبب إقبال السلاطي من على شراء الأرقاء لحماية أنفسهم واستخدامهم في الحروب. ونظراً لاتصاف هؤلاء بالشراسة

والواقحة فقد كانوا في بعض الأحيان يثورون على أسيادهم بيد إن بعض السلاطين الأقوياء كان بمقدورهم أن يكبحوا جماحهم ويخضعوهم لإرادتهم.

وفي عهد الأيوبيين تم إسكان المماليك من الترك والمغول بجزيرة في النيل ((جزيرة الروضة)) ليكونوا بعيدين عن المدينة ولذلك سموا بالمماليك البحرية. وأول أسرة من المماليك (١٢٦٠-١٣٨٢)م كانت من هذه الطائفة. أما المماليك الآخرون فأنهم جلبوا إلى البلاد وسموا بالمماليك البرجية نسبة إلى الأبراج التي كانوا يقطنونها في القلعة أو في أرجاء المدينة ومعظمهم ينتسب إلى الجيش الجركسي ومن هؤلاء أسرة المماليك الثانية (١٣٨٢-١٥١٧)م والواقع إن للمماليك في مجموعهم مكانة كبيرة ومركزاً قوياً لاسيما في مدتهم الأخيرة، إذ كانوا يرغمون السلطان على الخضوع لإرادتهم ومن هؤلاء من قبض على مصر بيد من حديد مدة قرنين ونصف.

وكان من أشهر ما عرف عن المماليك انقسامهم إلى أحزاب وشيع لكل حزب منها زعيم، وكان المملوك شديد التمسك بالسلطان أو الأمير الذي اشتراه عظيم التقيد بأسرته وبحزبه وكان النزاع والخلاف الذي يقع بين الأحزاب المختلفة سبباً في تعكير صفو إدارة الحكومة.

دولة المماليك في مصر (١٢٦٠-١٥١٧) م

كانت القوات المغولية تخطط للاستيلاء على مصر لتضمها إلى إمبراطوريتها وكانت مصر تحت سيطرة المماليك. وهؤلاء من الرقيق الشراكسة وينقسمون إلى قسمين. المماليك البحرية والمماليك البرجية. وقد دخلوا في حروب وصراعات مستمرة مع الصليبيين، وعندما بدا الزحف المغولي على المشرق الإسلامي ظهر خطر شديد على منطقة بلاد الشام ومصر لاسيما بعد سقوط الخلافة العباسية واحتلال المغول للعراق عام ١٢٥٨م.

وكان هولوكو قد وضع خطته بالسيطرة على مناطق غرب إيران وشرقها ثم التقدم نحو العراق وبلاد الشام والأناضول وأرمينيا ثم مصر. وفعلاً نجح المغول في خبطهم تلك ولم تبق امامهم سوى مصر، ومما شجعهم على التقدم باتجاه البلاد هو تردي الحالة المعنوية للسكان المحليين لاسيما في بلاد الشام فظهرت حالة من اليأس مما شجعت هولوكو بالتفكير جدياً في كيفية الوصول إلى تلك المناطق التي وضعها في خطته، وعندما وصلت الإخبار بتقدم الجيش المغولي اظهر المماليك في مصر حالة الاستعداد ووضعوا الخطط لمواجهة الخطر المغولي المحتمل. وأرسلت رسائل تهديد ووعيد لحكومة المماليك في مصر من قبل القادة المغول.

على اثر تهديدات المغول المستمرة والرسائل التي أرسلت إلى الظاهر بيبرس سلطان المماليك، فقد دعي الأخير إلى عقد اجتماع موسع للقيادة العسكرية لاتخاذ القرار في مواجهة الخطر المغولي، وقد استقر الرأي على مواجهة الجيش المغولي وان تكون فلسطين الخط الدفاعي الأول أمام تقدم الجيش المغولي، واخذ قادة المماليك يجمعون المعلومات عن تحركات القوات الغازية ، ولتنفيذ الخطة تقدمت قوات المماليك باتجاه فلسطين واتخاذها كخط دفاعي أول، كما قرر قادة المماليك اختيار المكان المناسب للمعركة في منطقة عين جالوت، وذلك بالعمل على سحب قوات المغول إليها، وهذه المنطقة يعرفها جيش المماليك بشكل جيد.

وفعلاً نجح جيش المماليك في تحقيق الانتصار على قوات المغول في معركة عين جالوت^(١) عام ١٢٦٠م وقد أعاد هذا الانتصار للسكان العرب في بلاد الشام ومصر والعراق أملهم في إبعاد قوات المغول عن بلاد الشام ومصر ثم إخراجهم من العراق لاحقاً.

١- التفصيل عن معركة عين جالوت يراجع: د. عماد عبد السلام رؤوف، معركة عين جالوت، سلسلة إصدارات الثقافة العسكرية، بغداد ١٩٨٦.

كما إن ذلك الانتصار تزامن مع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام عام ١٢٩٢ م مما أعطى الأمل في تحقيق الانتصار وإعادة الخلافة الإسلامية من جديد واستعادة المكاة السياسية لها.

دولة المماليك البحرية (١٢٦٠-١٣٨٢)م

كان السلطان الظاهر بيبرس أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبؤوا عرش مصر مدة قرن من الزمان. وهو من العبيد المماليك وقد اظهر مهارة في الحروب التي اشترك فيها ثم ترقى في المناصب التي تولاها، واكتسب محبة الناس ثم بسط نفوذه داخل مصر وخارجها، وخفض الضرائب عن الأهالي وسن قوانين عادلة، وشيد المساجد وأسس المعاهد الدينية واهتم بالري وأصلح الثغور والمعازل وزاد في استتباب الأمن في مملكته وأصلح البريد، فكانت الأخبار تصل بسرعة بين دمشق والقاهرة.

وقد فكر الظاهر بيبرس في عام ١٢٦١م باعادة الخلافة الإسلامية إلى مكانتها، واستقبل الخليفة ((المستنصر بالله)) الذي بايعه الظاهر بالخلافة واقسم له الطاعة، ولكن الخليفة العباسي قلد الظاهر بيبرس سلطنة البلاد وخلع عليه الخلع (وهي جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلده سيفاً عربياً). وكانت السلطة الحقيقية بيد سلطان المماليك أما الخلفاء العباسيون فقد بقى لهم لقب الخلافة فقط طوال حكم دولة المماليك في مصر.

قام الظاهر بيبرس بأربع حملات ضد الصليبيين في بلاد الشام ففي عام ١٢٦٣م كانت أول حملاته بسبب نقض الصليبيين العهود بتسليم بعض المعازل. وفي عام ١٢٦٥م قام بحملة ثانية حاصر بها ((قيسارية)) وسقطت بعد هجوم دام خمسة أيام ثم حاصر((قلعة ارسوف)) البحرية لكنه فشل في دخولها ومع ذلك أجزل العطاء لكبار الأمراء المماليك، ومنحهم أقطاعات في فلسطين. وفي العام التالي أرسل الظاهر بيبرس قوة لنجدة حامية مدينة حمص ضد هجوم ملك أنطاكية. فزار في طريقه بيت المقدس،

ثم تقدم نحو عين جالوت وبحيرة طبرية، وحاصر قلعة صفد حتى تمكن من فتحها ولكنه قام بقتل جميع أهالي القلعة بعد إعطائهم الأمان، وقد عد ذلك ((نقطة سوداء)) في حياة السلطان بيبرس. وبعد انتهاء المعركة ودخول المدينة قام السلطان بإعادة بنائها.

وفي عام ١٢٦٦م أرسل الظاهر بيبرس حملة اخترقت مضائق كليزيا ووصلت أرمينيا والتقت قوات الطرفين، وقد تمكنت قوات المماليك من هزيمة قوات الملك ((هيوثوم)) واجتاحت كل البلاد من اطنة إلى جبال طرطوس، وفي أثناء عودة الظاهر إلى القاهرة كبا به جواده فكسر فخذه، وفي خلال السنة الثالثة استسلم الملك ((هيوثوم)) لمطالب السلطان.

وفي عام ١٢٦٨م قاد حملة رابعة وزحف إلى طرابلس وإنطاكية وعزم على الانتقام من حاكميها لمساعدتهما المغول في هجومهم على سوريا فدمر كل ما حول طرابلس من الأراضي وسرق ممتلكات الأهالي في المدن والقرى المجاورة لها، وقتل أعداداً كبيرة من سكانها وسيطر على المدينة.

وفي خلال السنتين أو الثلاث السنين التي تلت المعركة استمر الظاهر بيبرس في مهاجمة معاقل الصليبيين القريبة، ولكنه خلال حملته على جزيرة قبرص هبت عاصفة حطمت عدداً من سفن أسطول السلطان، فكانت هذه خاتمة الأعمال ضد الصليبيين في عهده، بعدها عقدت هدنة بين الطرفين.

وبعد إن امن الظاهر بيبرس من الصليبيين أخذ يستعد لمواجهة المغول الذين بدأوا يزحفون نحو الغرب، فسار على رأس حملة كبيرة في عام ١٢٧٣م هاجمت قوات المغول وحقت انتصاراً ساحقاً عليهم ثم قضى السنتين التاليتين في القيام بحملات عدة على حدود آسيا الصغرى كللت بالنجاح.

وقام السلطان المملوكي في نهاية حكمه بأعمال حربية على بلاد النوبة ((السودان)) ليثار منهم لغزواتهم على صعيد مصر، فحقق نجاحاً كبيراً عليهم وخضعت بلادهم لحكم المماليك في مصر.

وكانت غزوته ضد المغول لموازرة السلاجقة احد اكبر غزواته. ففي عام ١٢٧٦م سير جيشاً كبيراً لموازرة السلاجقة في (قيسارية) ضد احد أمراء المغول فتمكن من هزم المغول عند (أبلستين) ثم توجه نحو (قيسارية) ففرح الأهالي بقدومه وإنقاذهم من المغول.

وبعد الانتصار رجع الظاهر بيبرس إلى أنطاكية ثم إلى دمشق واستراح فيها وأقام وليمة لأمرائها من (لبن القمر) وهو طعام تتاري كان شديد الشغف به فأكثر منه فقضى نحبه بعد أسبوعين، وفي رواية أخرى إن القدر الذي شرب منه كان قد دس فيه السم فتوفي، وقد حنطت جثته ودفنت في دمشق. وهكذا مات الظاهر بيبرس وهو في أوج قوته وعظمته، وقد امتد سلطانه من الفرات إلى النيل ومن تخوم أسيا إلى سواكن على البحر الأحمر فضلاً على حملاته الموفقة على الصليبيين والانتصار عليهم.

ومن أعماله انه أعاد الخلافة إلى العباسيين وشيد كثيراً من المعاهد الدينية، وتزوج أربعاً من عقائل التتار، عدا من كن في بيته من الجواري الحسان، فرزق منهن عدداً من الذكور والإناث.

وكان السلطان المملوكي نموذجاً في فضائله وذرائله، وعلى ما كان عليه من التعسف في ابتزاز الأموال والغدر والقتل مما شوه اسمه كان أيضاً ملكاً قوياً الشكيمة. ومن جليل أعماله ظهوره بين جمهور الناس وتألفه مع كل من حواليه. كل ذلك جعل الناس تتناسى قساوته وهو ((يعد من أحسن وأعظم السلاطين الذين تبؤوا عرش مصر))^(٢) وقد أوصى بالحكم قبل وفاته بسنتين إلى ابنه سعيد لحكم البلاد.

٢- وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر ١٢٦٠-١٥١٧م، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة ١٩٢٤، ص ٥٤

استمر حكم المماليك البحرية حتى عام ١٣٨٢م حكم خلالها عدد من السلاطين المماليك، وكانت البلاد خلالها تعرضت لغزو المغول. ففي عام ١٢٨١م اجتاحت قبائل المغول مرة أخرى شمال سوريا، ولكن قلاوون استطاع جمع جيش من المصريين والسوريين بلغ تعداده خمسين ألف مقاتل ثم زحف نحو حمص وقابل المغول في معركة كانت نهايتها انتصار القوات العربية في المعركة.

ومن أعمال قلاوون بناء مستشفى للمرضى، وانشأ مكتبة للأهالي ضمت كتباً قيمة كثيرة ومكتبا للأطفال والصبيان، وملجأ للأيتام واهتم بفن العمارة، وكان ذلك سبباً في تخليد اسم قلاوون في القاهرة.

توفي قلاوون عام ١٢٩٠م وهو في السبعين من عمره ، وأصبح خليل بن قلاوون السلطان الجديد (١٢٩٠ - ١٢٩٣)م للمماليك البحرية. وكان ابرز حدث في عهده إصراره على إخراج الصليبيين من سوريا، وفعلاً نجح في ذلك عام ١٢٩١م بدخول مدينة عكا بعد حصار ثلاثة وأربعين يوماً وعلى اثر هذا الفتح ترك الصليبيون كل ما بقى في أيديهم من الحصون، وهكذا انتهت الحروب الصليبية بعد أن مضى عليها قرنان من الزمن إذ بدأت عام ١٠٩٦م. وفي ذلك أشار احد المؤرخين عن نهاية الحروب الصليبية قائلاً ((ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذي ظل أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقة سيوف نضال العالم))^(٣)

وفي عام ١٢٩٢م تمكن خليل بن قلاوون من فتح قلعة الروم، ولكنه تراجع إلى سوريا بعد ظهور قوات المغول، وقتل السلطان عام ١٢٩٣م من قبل بعض أعدائه خلال رحلة صيد، فانتخب الناصر بن قلاوون سلطاناً جديداً (١٢٩٣ - ١٢٩٩).

ويكاد ينحصر تاريخ البلاد في الأعوام الخمسة التي أعقبت موت السلطان خليل في حوادث مؤامرات وقتل، فكان السلطان الجديد في التاسعة من عمره فولي مكانه ((لاجين)) ولما قتل هذا ولي الناصر بن قلاوون السلطة مرة ثانية (١٢٩٩ - ١٣١٠)م وكان في الرابعة عشرة من عمره فأصبح الأمير ((بيبرس الجاشنكير)) رئيس قصره،

٣- وليم مدير، المصدر السابق، ص ٦٣.

يحكم بدلاً منه وأصبح الأمير صاحب النفوذ على المماليك البرجية. في حين كان الناصر بن قلاوون سلطاناً على الأمراء المستقلين.

وفي عام ١٢٩٩م وصلت أخبار خطر المغول إلى مصر فزحف السلطان على رأس جيش كبير لملاقاتهم ووقعت معركة بين القوتين انتهت بهزيمة جيش السلطان، وسيطرة المغول على دمشق.

وتجدد زحف المغول على سوريا عام ١٣٠٣م، والتقى الجيش المغولي مع جيش السلطان ناصر في سهل ((مرج الصقر)) حقق فيه المماليك نصراً كبيراً على المغول وفي عام ١٣٠٩م تنازل السلطان إلى ((بيبرس الثاني)) ولكن الأخير لم ينجح في إدارة شؤون الحكم. فعاد الناصر للحكم مرة ثالثة (١٣١٠-١٣٤١)م وقتل ((بيبرس الثاني)) كما قتل نائب حاكم مصر ((سلار)) بسبب موقفه المعارض للسلطان الناصر.

وفي عهد الناصر تحسنت العلاقات المصرية – المغولية وأصبح الناصر صاحب السلطان على الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية كما تمكن من تأديب سكان بلاد النوبة وجعلها تحت حكم مصر.

وكانت ابرز أعماله انه خفض الضرائب على الأهالي، وقضى على أقطاعات الأمراء، وجرى مسح للأراضي المصرية، وأعاد النظر في نفقات الحكومة وفتح ((ترعة المحمودية)) فأصبحت طريقاً تجارياً بين البحر المتوسط والبحر الأحمر كما زرعت الأراضي في تلك المناطق، وقل خطر الفيضان لنهر النيل بإقامة سد على الضفة اليمنى لنهر النيل، وشيد القصور خارج القلعة وداخلها لعائلته وأبنائه أبرزها (القلعة البيضاء)، كما بنى عدداً من المساجد والحمامات والمدارس وهناك بعض الآثار للمماليك ما تزال قائمة في مصر.

وتلقى السلطان علوم الفقه والقانون في دمشق، فكان يشارك العلماء في كل أمر يفيضون فيه. وفي عام ١٣٤١م مرض الناصر واشتد عليه المرض، وقبل وفاته دعي

إلى عقد المجلس وقلد ابنه ((أبا بكر)) سيف السلطة وبعدها بأيام توفي الناصر وهو في الثامنة والخمسين من عمره.

وكان الناصر بن قلاوون ملكاً جليل القدر، ولكن يؤخذ عليه ما قام به من أعمال القسوة غطت على أعماله الجيدة، ولما مات الناصر كان اسمه مخيفاً أكثر منه محبوباً.

وبقى ملك مصر في بيت الناصر بن قلاوون مدة أربعين سنة (١٣٤١-١٣٨٢)م توارثه فيها ثمانية من أولاده على التعاقب، ثم انتقل الحكم إلى أحفاده في العشرين سنة الأخيرة فكانت هذه المدة سلسلة حوادث بؤس وشقاء إذ كان السلاطين أطفالاً^(٤)، وكان الصراع مستمراً بين السلاطين والأمراء والأشخاص المتنفذين في السلطة. فعلى سبيل المثال تولى الملك في عام ١٣٤٥م ((شعبان)) ثم ((حاجي)) وقد ذبح كل منهما في نحو عام فكان عصرهما عصر خلاعة ومجون وتقتيل وفوضى أسوأ مما حدث في البلاد في أي زمن من قبل.^(٥)

وكان من ابرز الأحداث في عهد السلطان الناصر أن اجتاح البلاد الوباء المعروف ((الموت الأسود)) الذي قبر الملايين، ويشير المقرئزي إلى أن الوباء " ظهر في الصين ثم انتشر إلى بلاد التتر، ثم بلغ القسطنطينية، ومنها انتقل إلى أوربا وسوريا" وفي روايات أخرى انه جاء إلى سوريا من الهند عن طريق بلاد فارس والجزيرة، ثم من سوريا إلى مصر ذلك بين شهري تشرين الثاني ١٣٤٨م وكانون الثاني ١٣٤٩م، وكانت تحمل الأموات على ألواح ويوضع كل ثلاثين أو أربعين في قبر واحد. انتهى الوباء في ربيع عام ١٣٤٩م بعد أن حصد الآلاف من الناس.

وكان آخر سلاطين المماليك البحريةية ((علي)) وهو طفل في السادسة من عمره وكانت حوادث الخيانة والقتل سائدة في هذه المدة، وفي عام ١٣٨١م مات السلطان الصبي فخلفه أخوه ((حاجي)) وعمره أيضاً ست سنوات، ولكن ثوران المماليك بدا مرة ثانية، فجمع أواخر عام ١٣٨٢م ((مجلس الأمراء والمشايخ)) في مجلس السلطان وأعلن انه

٤- للتفصيل يراجع : وليم موير، المصدر السابق، ص ٩٥-١١٠.
٥- المصدر نفسه، ص ٩٩.

يجب أن يكون السلطان رجلاً لا طفلاً ليسود السلم والسعادة في الداخل والخارج، فوافق المجتمعون على هذا ثم اخذ السلطان الصغير وادخل إلى الحريم، وهكذا انتهى بيت قلاوون وبانتهائه انتهت أسرة المماليك البحرية أو التركية بعد أن حكمت ١٢٢ سنة فأصبحت السلطة إلى المماليك البرجية أو الجركسية.

المماليك البرجية (١٣٨٢-١٥١٧)م

استلم السلطة الظاهر سيف الدين برقوق (١٣٨٢-١٣٩٦)م وكان الصراع على السلطة في عهد المماليك واضحاً آنذاك، ومن ابرز الأحداث أن ظهر خطر المغول مرة ثانية بزعامة تيمورلنك، بعد أن اجتاح كل أواسط آسيا أمامه زحف بجنوده غرباً فسيطر على بغداد، ثم سار شمالاً حتى شواطئ بحر قزوين، واستعد تيمورلنك للتوجه إلى مصر وسوريا لكنه عدل عن ذلك لحدوث تمرد في الشرق فنجت في ذلك سوريا مؤقتاً.

أرسل القائد المغولي رسائل إلى سلطان المماليك يحذره فيها ويطلب منه الخضوع لحكم المماليك، ولكن برقوق قتل رسول تيمورلنك، وكان سلطان المماليك قد خرج بجيشه لمساعدة والي بغداد ضد هجمات تيمورلنك، لكنه عاد ثانية إلى القاهرة بعد اتجاه المغول شمالاً. وقد قضى برقوق حياته في خوف من تيمورلنك والعثمانيين أعداء السلطنة المصرية الجدد. وبعد وفاة برقوق عام ١٣٩٦م أوصى لابنه ((فرج)) بالسلطنة من بعده وهو في الثالثة عشرة من عمره، والذي استمر في الحكم حتى عام ١٤١٢م.

استلم فرج الحكم والنزاع قائم في مصر والفوضى والمظالم في سوريا لذلك قاد جيشاً لإعادة الاستقرار في سوريا، فقتل حاكمها وقطع رؤوس أربعة وعشرين من القادة المتمردين على سلطة المماليك.

وفي نيسان ١٤٠١م ظهر خطر تيمورلنك من جديد وهدد المماليك في مصر وطلب من سلطانها أن يعترفوا له بالسيادة عليهم، لكنهم قتلوا رسول تيمورلنك فهاجم الأخير سوريا ودمر مدنها فذعرت القاهرة وانتشرت أخبار بطش تيمورلنك وانتقامه إلى صفوف الجيش الذي وصل به السلطان إلى دمشق وجرت مناوشات رجحت فيها كفة الجيش المصري، فدخل تيمورلنك في مفاوضات بسبب قدوم فصل الشتاء، فانسحب الجيش المغولي، ولكن القوات المصرية هاجمت مؤخره الجيش المغولي، وعند ذلك رجع تيمورلنك ودمر بعض المدن واسر أعداداً من الجيش المصري، وسقطت القلعة، ودمرت دمشق ثم رحل تيمورلنك واخذ معه عدداً كبيراً من العلماء والصناع والمهندسين والعمال إلى سمرقند... وعن طريق عودته مر بحلب فدمرها ولما وصل بغداد عام ١٤٠١م قتل أعداداً كبيرة من الناس حتى تركها ((مغطاة بأبراج من جثث الموتى)).

وفي خلال السنوات القليلة التالية (١٤٠٢-١٤٠٥م) كانت العاصمة دمشق مسرحاً لسوء النظام بقيام عدد من الأمراء بالقتال بعضهم مع البعض، فحاول السلطان المملوكي استعادة نفوذه عليها لكنه تراجع أمام الثوار إلا انه عاد ثانية فتمكن من السيطرة على العاصمة.

وفي عام ١٤١١م قامت ثورة ضد سلطة المماليك في الإسكندرية بسبب المظالم التي ارتكبتها بحق الأهالي ثم ثورة جديدة في سوريا.

ويشير احد المؤرخين إن مدة حكم دالين برقوق كانت "تعباً وشقاءً..... وكان ما مر بالبلاد من الوباء والقحط انقص السكان إلى نحو ثلث عددهم، وجعل الحياة عبئاً ثقيلاً. ويعزى إليه وحده من بين الأسرة الطويلة من طغاة مصر سوء الحكم الذي كان ظالماً قاسياً مخالفاً للشرع، وبعد وفاته حكم السلطان أبو النصر شيخ المحمودي (١٤١٢-١٤٢١م) الذي استهل حكمه بمهاجمة سوريا للتمرد على حكمه وقتل حاكمها ((نوروز)) وفي خلال حكمه جدد الصليبيون هجومهم على الإسكندرية عام ١٤١٧م وعادوا بأسرى وغنائم كبيرة. وبعد وفاته أصبح ابنه الطفل سلطاناً جديداً في مصر "

فقد حمل الطفل احمد بعد موت أبيه من الحریم وهو یصرخ، ووضع علی ظهر جواد ثم سار باحتفال إلى قاعة الاجتماع^(١) ليصبح سلطاناً وعمره سنة ونصف، فأصبح ((ططر)) نائباً للسلطان، لكنه خلع السلطان الطفل بعد سنة واستولى هو علی السلطنة.

وحكم المماليك في مصر عدد من السلاطين البرجية ومنهم الناصر محمد الثاني، وقانصوه الاشرفي، وقانصوه جنبلاط، وطومان بالي، وغيرهم وأخرهم قانصوه الغوري (١٥٠١-١٥١٦)م وكان في الستين من عمره، بدا حكمه بفرض الضرائب علی المواطنين فولد ذلك ثورات في المدن " وصار جامع الضرائب يرشق بالحجارة في القاهرة" وقد ذبح حاكم دمشق علی ماكان يجبي من الضرائب المرهقة من الأهالي. وقد صرف السلطان تلك الأموال التي جمعت من الناس علی شراء عدد كبير من المماليك الذين كان يثق بهم السلطان الغوري، ثم صرف أموالاً علی تحصين مدينة الإسكندرية ورشيد وغيرهما، وعلی مجاري الماء في مصر، وبناء مسجد فخم ومعهد في القاهرة وإقامة مبان جديدة في القلعة والاهتمام بأمر الحج وتوفير المياه علی الطريق للحجاج.

واهتم بالبلاط المملوكي. ولم يحدث شيء من القتال إلى آخر عهد المماليك وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح أثره السلبي علی وضع المماليك الاقتصادي والعسكري.

وعندما تمكن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)م من الحد من خطورة إسماعيل أصفوي في إيران فانه اخذ يفكر في فتح سوريا ومصر، ولذلك جهز جيشاً كبيراً منظماً في ربيع ١٥١٦م، واخذ السلطان قانصوه الغوري بأعداد جيشه لمواجهة الخطر العثماني. وخرج قانصوه من القاهرة في ١٨ مايس ١٥١٦م بجيشه الكبير المجهز بجميع المعدات عدا المدافع بسبب حرارة الصيف. بعد أن ترك ((طومان باي)) حاكماً علی المدينة وسار بجيشه حتى دخل دمشق، ثم نحو حلب، واستقبل في حمص وحماه بسرور من قبل الأهالي.

٦- وليم موير، المصدر السابق، ص ١٢٧.

وفي ٢٤ أ ب ١٥١٦م وقعت معركة في سهل "مرج دابق" انتهت بهزيمة المماليك وقتل السلطان قانصوه الغوري في المعركة. ودخل سليم إلى حلب ظافراً مرحباً به باعتباره منقذاً لهم من مظالم المماليك وتعسفهم ثم تقدم سليم إلى دمشق.

وصلت أخبار الهزيمة ومقتل "الغوري" إلى القاهرة في أوائل أيلول من العام نفسه، واختير "طومان باي" سلطاناً للمماليك في مصر. ووقعت في كانون الثاني ١٥١٧م معركة "الريدانية" انتصرت فيها القوات العثمانية ثم تقدمت وسيطرت القوات على القاهرة التي أصبحت منذ ذلك التاريخ تحت السيطرة العثمانية.

ظل المماليك في مصر طوال الحكم العثماني، إذ انه كلما كان يتقلص نفوذ الباب العالي من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته في مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك. وبقي المماليك على عهد العثمانيين طائفة منفصلة لا تختلط مع من يسكنونهم الديار واخذ عددهم يزداد بشراء مماليك من بلاد الجركس وسيبيريا وما جاورها من البلدان وصار رؤساء المماليك يسمون باسم ((شيخ البلد)) وكان الشيخ إذا عاضده الأمراء يستفحل أمره فينزل الباب العالي وواليه في مصر على إرادته، وكأنه هو الحاكم الفعلي للبلاد، واستمر ذلك حتى قضى عليهم محمد علي باشا في واقعة دبرها لقتلهم.

نظرة جغرافية في المغرب العربي

كانوا يطلقون اسم المغرب الأقصى على (مراكش) المغرب حالياً، والمغرب الأوسط ويقصدون به الجزائر، ويسمون القسم الشرقي منه بتونس أو أفريقيه. ولكن لم تحدد بالضبط مفاهيم هذه الأسماء من الناحية الجغرافية، ذلك انه لا توجد حواجز طبيعية تميز بين حدود كل من تونس والجزائر و المغرب، بل على العكس نلاحظ أن التقسيمات الجغرافية لشمال أفريقيا تتخلل الأقطار الثلاثة عرضاً وتمتد بمحاذاة البحر، فتبدأ من الشمال بإقليم ساحل خصب تشقه انهار صغيرة تستمد مياهها من منطقة التل ومنحدرة

نحو البحر. ويلى هذا الإقليم جنوباً منطقة الأطلس الصغير أو التل، ثم منطقة الهضاب العليا وتقع الصحراء الكبرى وراء هذه الأقسام الثلاثة.

ومن الناحية البشرية تميز المغرب العربي دون المشرق باحتفاظ عنصر السكان الأصليين البربر ببعض مميزاتهم، بخلاف الأجناس الأخرى التي دخلت الإسلام في المشرق العربي، أما العنصر الثاني فهو توافد هجرات عربية كثيفة إلى المغرب من القرن الرابع الهجري، ومن أشهرها قبائل الهلالية وبني سليم، التي تركت أثراً بعيدة في تاريخ المغرب، وهناك عنصر ثالث يؤكد عروبة المغرب ويتمثل هذه الحقيقة وهي إن المتكلمين بالبربرية يُسلمون بان اللغة العربية هي لغتهم الثقافية الوحيدة.

الكيانات السياسية المحلية في المغرب العربي

بدأت سمات الانقسام بين أجزاء المغرب العربي الثلاث تظهر في القرن الثالث عشر الميلادي، حينما اضمحلت دولة الموحيدين وحلت محلها بالتدرج دول ثلاث هي دولة الحفصيين في تونس، وبنو عبد الواد (الزيانيون) في الجزائر، والمرينيون في المغرب.

دولة الحفصيين في تونس (١٢٢٩-١٥٧٤)م

هي اسبق الدول الثلاث ظهوراً وأوسعها انتشاراً، وهي تنتمي إلى أبي حفص عمر يحيى بن عمر، وهم سلالة من البربر المغاربة الذين ينتمون إلى قبيلة هنتانة المصمودية. وكان الموحدون قد عهدوا إلى أفراد تلك الأسرة إدارة تونس وحين ضعفت الدولة الموحدية لاسيما بعد هزيمة عام ١٢١٢م في معركة العقاب بالأندلس، قطع يحيى بن عبد الواحد تبعيته لها، ولذلك نستطيع أن نقول بان الحفصيين قاموا على أنقاض الدولة الموحدية.

ويعد الأمير أبو زكريا يحيى الحفصي (١٢٢٩-١٢٤٩)م مؤسس الدولة الحفصية، إذ تمكن من الاستيلاء على السلطة وأعلن استقلاله عن الدولة الموحدية. وفي أواخر

القرن الثالث عشر الميلادي انشق عن الأسرة فرعان حكم احدهما في بجاية والأخر في قسنطينة. وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي استولى المرينيون على البلاد، ولكن الدولة الحفصية استعادت حيويتها ونشاطها مع حكم كل من أبو العباس احمد (١٣٧٠-١٣٩٤)م وأبي فارس عبد العزيز (١٣٩٤-١٤٣٤)م ثم أبي عمر يحيى (١٤٣٥-١٤٨٨)م واتخذوا مدينة تونس عاصمة لهم. وقد عرفت هذه المدة بالاستقرار وعم الأمن أرجاء الدولة.

وقد اعترف شريف مكة بسيادة الحفصيين وتلقبوا بأمرء المؤمنين، وأصبحت تونس في عهد الحفصيين من أهم مراكز الثقافة العربية، فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً مهماً. كما عقدت الدولة معاهدات مع معظم الدول الأوربية فعقد مع البندقية وجنوه وببزة معاهدات صداقة في المدة ما بين (١٢٣١-١٢٣٩)م وتضمنت المعاهدات ضمان الأمن المتبادل للملاحة ووضع لوائح للتبادل التجاري. وقدم الأمرء الحفصيون المساعدة إلى الإمارات الإسلامية في الأندلس للصدود أمام الهجمات الإسبانية.

وتحقق نوع من التطور الاقتصادي في عهد أبي زكريا كما وتحقق الاستقرار في الداخل وعُد أبو زكريا ابرز رجال القرن الثالث عشر الميلادي، فقد انشأ دولة قوية ونشر الأمن في ربوعها وقضى على حالة الاضطراب والفتن وحقق العدالة بين الأهالي، وأحسن اختيار الإداريين لدولته. وتوالى على حكم دولة الحفصيين أبناؤه وأحفاده أكثر من ثلاثة قرون.

وكانت ابرز أسباب ضعف دولة الحفصيين هي التنافس على الحكم بين الورثة مما أدى إلى انقسامها إلى ثلاثة أقسام احدهما يحكم في بجاية والثاني في تونس والثالث قسنطينة. وانتهى أمر الدولة بوضع نفسها تحت حماية الغزاة الأسبان. ولكن الدولة

العثمانية سيطرت على أراضي الحفصيين عام ١٥٧٤م وأصبحت في ذلك جزءاً من الدولة العثمانية.^(٧)

دولة بني عبد الواد (الزيانيون) في الجزائر (١٢٣٥-١٥٥٤)م

الزيانيون، بنو زيان أو بنو عبد الواد سلالة بربرية زناتية حكمت في غرب الجزائر ومقرهم تلمسان، وتعد قبيلة زناتة إحدى أكبر وأشهر القبائل البربرية ببلاد المغرب، واصل تسميتهم إلى جدهم (عابد الوادي)، استقرت شمال الصحراء الكبرى ثم هاجرت في حدود القرن الحادي عشر إلى شمال الجزائر. حاول بعض الولاة القضاء على نفوذ بنو عبد الواد في تلمسان ولكنهم فشلوا في ذلك، وفي عام ١٢٣٥م تمكن يغمر أسن بن زيان بن ثابت من تولي حكم إقليم تلمسان وكان هذا الأمير يتمتع بالشجاعة والذكاء وقد استطاع توسيع حدود إمارته وتثبيت قواعدها وضم عدد من القبائل المجاورة لسلطته، كما توسع غرباً وصارت حدود دولته الحد الفاصل بينه وبين دولة بني مرين بالمغرب كما امتد نفوذه إلى مدينة وجدة وإقليم فجيج في الجنوب الغربي. ولم تكن حدود الدولة الزيانية ثابتة ومستقرة، بل كانت بين مد وجزر تبعاً للظروف السياسية والأخطار الخارجية، وكانت لا تتجاوز في بعض عهودها أسوار عاصمة تلمسان.

أصبحت تلمسان مركزاً لنشر الثقافة ومركزاً تجارياً كما اشتهرت ببساتينها الغناء التي كانت منتجاتها تصدر عن طريق الموانئ الساحلية. وقد طمع جيرانها المرينيون والحفصيون في الاستيلاء عليها. وبلغت الثقافة أعلى درجاتها في عهد أبي حمو موسى بن أبي يعقوب الثاني (١٣٥٩-١٣٨٩)م ، وبسبب التهديد الإسباني لبني عبد الواد فقد وضعوا أنفسهم تحت حماية العثمانيين الذين استولوا على مدينة الجزائر عام ١٥١٦م بأيدي الأخوين عروج وخير الدين بربروسا، وقد استولى العثمانيون على غرب

٧- روبربر نشفيك، تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت ١٩٨٨.

الجزائر بعد عزل احد سلاطين بني عبد الواد الحسن بن أبي محمد عبد الله (١٥٥٠-١٥٥٤م).^(٨)

دولة المرينيين في المغرب (مراكش) (١٢٤٤-١٤٦٥)م

ينحدر المرينيون من قبيلة زناتة (البربر)، استقروا في المناطق الشرقية والجنوب الشرقي من المغرب، وبعد صراع مع دولة الموحيدين استطاع المرينيون في عهد الأخوين أبو عيسى عبد الحق (١٢٤٤-١٢٥٨)م ثم أبو يوسف (١٢٥٨-١٢٨٦)م من أن يستولوا على العديد من المدن من أهمها مكناس عام ١٢٤٤م وفاس عام ١٢٤٨م ومع حلول عام ١٢٦٩م استطاعوا التخلص من آخر الموحيدين في المغرب.

بدأوا بعدها بتنظيم جيش قوي ليتمكنهم من الاحتفاظ بالمناطق التي استولوا عليها. وخاضوا عدة حروب على ارض الأندلس لمساعدة إخوانهم المسلمين في عهد أبي يعقوب يوسف (١٢٨٦-١٣٠٧)م وقد توسعوا إلى الجزائر واستولوا على وهران ومدينة الجزائر.

عُرفت الدولة المرينية أوج قوتها في عهدي أبي الحسن علي (١٣٣١-١٣٥١)م ثم أبي عنان فارس (١٣٥١-١٣٥٨)م وازدهرت حركة العمران وقد استطاع الأخير من صد هجوم أمير عبد الواد والاستيلاء على عاصمتهم تلمسان ثم واصل في غزواته حتى بلغ تونس واحتلها على حساب الحفصيين.

وكان للمرينيين علاقات ودية مع مصر والسودان وتونس، ولقد شهدت مدة حكم بني مرين تطوراً هاماً في المجال الثقافي وتجسد ذلك من خلال الاهتمام ببناء المدارس وبطلبة العلم، وتخصيص أموال الأوقاف لتطوير التعليم والاهتمام بالعلماء والطلاب.

٨- للتفاصيل يراجع : يحيى بن خلدون، بقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد؛ محمد عبد الله التني، تاريخ بني زيان، دت

ولقد تنافس سلاطين بني مرين في إنشاء المدارس والربط والمساجد التي عدت مراكز مهمة لتعليم الطلبة في تدريس أمهات الكتب في العلوم الفقهية.

تعرضت دولة بني مرين في عام ١٣٤٨م لوباء اثر بشكل كبير على عدد السكان والحياة الاقتصادية والثقافية. فقد ذكر ابن خلدون بأنه "ضربت الأمصار والمصانع، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، ودرست السبل والمعالم. ولقد تعرضت الدولة المرينية لغزو البرتغاليين ومملكة قشتالة (اسبانيا) ولما سقطت سبتة عام ١٤١٥م في أيدي البرتغاليين أصبح موقف المرينيين حرجاً ومما زاد موقفهم سوءاً انتشار المنافسات الداخلية بعد مقتل أبي سعيد المريني عام ١٤٢٠م وتدخل كل من غرناطة وتلمسان لتؤيد كل منهما احد المطالبين بالعرش، وطمع بنو وطاس، وهو فرع صغير منهم كان يتولى الوزارة للمريتيين، وفي الاستئثار بالسلطة، وانتقل الحكم إلى أيديهم فعلاً في منتصف القرن الخامس عشر لكن المرينيين استعادوا مركزهم عام ١٤٥٨م.

وبقى المرينون يحكمون بمدينة مراكش عاصمة الجنوب، وأصبح القسم الشمالي يسمى بمملكة فاس والقسم الجنوبي يسمى بمملكة مراكش واستعانت الثانية على الأولى بالغزاة من البرتغاليين. ولم ينفذ البلاد سوى ظهور الأسرة السعدية.^(٩)

ومع بداية العقد الثاني من القرن السادس عشر ظهرت محاولات للدولة العثمانية للسيطرة على مناطق المشرق والمغرب العربي، وبالفعل اتجه السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) للسيطرة على تلك المناطق بعد ازدياد الخطر الفارسي على المنطقة فضلاً على الغزو الأوربي، البرتغالي والاسباني لمنطقة شبه الجزيرة العربية، فدخلت المنطقة العربية تحت سيطرة جديدة تمثلت بالدولة العثمانية.

٩- إحسان حقي ، المغرب العربي ، دار اليقظة العربية ، ص ٨٧-١٠١.

الفصل الثاني

الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية

- نشوء الدولة العثمانية ونموها.
- الصراع أصفوي العثماني.
- الاحتلال العثماني للعراق.
- الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر.
- الاحتلال العثماني لأقطار المغرب العربي.
- ظهور الإمارات المحلية في الوطن العربي خلال العهد العثماني.
- الجليليون في الموصل.
- آل ظاهر العمر في فلسطين.
- آل معن في لبنان.
- آل العظم في سوريا.
- القرامنليون في طرابلس الغرب (ليبيا).
- الأسرة الحسينية في تونس.
- غزوات نادر شاه للعراق.
- حصار كريم خان الزند للبصرة

نشوء الدولة العثمانية ونموها

عندما بدأت الدولة السلجوقية في التفكك نتيجة لضغوط الايلخانيين، كانت قد بدأت تظهر رويداً رويداً على مناطق الحدود إمارات تركمانية مستقلة أو شبه مستقلة، وبسبب التهديد المغولي راحت العشائر التركمانية التي تعيش على شكل تكتلات ضخمة في المراعي الواقعة في وسط الأناضول وشرقه تتزاحم على امتداد الحدود الشرقية للبيزنطيين غرب الأناضول.

كما كانت العناصر الحضرية التي تفكر بالاستفادة من الإمكانيات الجديدة وفئات العلماء والصناع والتجار وقسم كبير من الأهالي المتوطنين في وسط وشرق الأناضول قد نزحت هي الأخرى إلى الأراضي المفتوحة حديثاً، فاستقروا في المدن والقرى الواقعة هناك، وراحوا يمارسون حياتهم حتى وقعت على عاتقهم مهمة تشكيل البنية التحتية لاقتصاد الإمارات التركمانية التي استقلت حديثاً.

ومن تلك الإمارات التركمانية ظهرت إمارة صغيرة في الطرف الشمالي الغربي من بلاد الأناضول، وعلى الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.

ويُعد ارتغرل هو مؤسس هذه الإمارة، وبعد وفاته عام ١٢٨٨ م أصبح أكبر أولاده عثمان مكانه ولم يلبث هذا الأخير أن حصل على امتيازات جديدة إذ حصل على لقب "بك" مع إقطاعه أراضي وقلاع جديدة في غرب الأناضول، كما أجاز له السلطان السلجوقي ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة، وفي عام ١٣٠٠ م توفي السلطان السلجوقي علاء الدين فاستأثر عثمان بجميع الأراضي المقطوعة له. كما سيطر على مناطق أخرى أضافها إلى إمارته.

وبذلك تأسست إمارة صغيرة في تلك المناطق سميت باسم عثمان ((الإمارة العثمانية)) والتي قدر لها فيما بعد أن تصبح احد اكبر الإمبراطوريات في العالم في التاريخ الحديث.

توسعت إمارة عثمان بانضمام قسم من الإمارات التركمانية إلى إمارته، وفي عام ١٣٠٢م حقق انتصاراً على إحدى القوات البيزنطية كشف عن العلامات الأولى على قدرته، ومنذ ذلك التاريخ أخذت شهرته تعم الأطراف.

ولما تشكلت الإمارة العثمانية وأخذت في تدعيم قواتها والتوسع على حساب الأراضي البيزنطية دخلت مرحلة جديدة في توجيه علاقاتها مع الإمارات التركمانية المجاورة وجهة جديدة، وربط تلك الإمارات بها.

وبدأت بذلك مرحلة استقطاب القوات العسكرية للإمارات المجاورة واستقطاب الطبقات الشعبية الموالية لها، وبذلك استطاع عثمان بن ارطغرل من تأسيس إمارة قوية استظلت بدولة السلاجقة الروم أول الأمر، وتوسعت على حساب الإمبراطورية البيزنطية وبعد سقوط دولة السلاجقة على يد المغول الأيلخانيين، تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركمانية المسلمة في الأناضول، وهي الإمارات الناشئة على أنقاض دولة السلاجقة.

وفي عهد اورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٦٠) بدأ التوسع باتجاه شرق أوروبا ثم استأنف التوسع العثماني في عهد السلاطين الأوائل في مناطق أوروبا الشرقية وتم الاستيلاء على أجزاء كبيرة منها.

ولم تنجح غزوات تيمورلنك المدمرة عام ١٤٠٠م في القضاء على الدولة العثمانية، رغم خسارة العثمانيين أمام تيمورلنك في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م، فقد استطاع العثمانيون إعادة تنظيم قوتهم والسيطرة على القسم الآسيوي، ثم التوسع في القسم الأوربي، وان تتوج عملياتها العسكرية في عهد محمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١-١٤٨١م) بفتح عاصمة البيزنطيين القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وضم أجزاء من أوروبا الشرقية فكان ذلك البداية للتوسع العثماني وتكوين إمبراطورية واسعة بعد القضاء على الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوروبا.

وما إن انتهى القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر ايجة. وفي عهد سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)م أخذت الدولة العثمانية اخطر قراراتها حين استدارت لأول مرة منذ تأسيسها إلى الشرق العربي، وكان ذلك التغيير لسببين مهمين الأول : ظهور الدولة الصفوية في إيران والتي كانت تشكل تهديداً للوجود العثماني في المنطقة والثاني: الغزو الأوربي للوطن العربي ولا سيما منطقة الخليج العربي.

ولقد كان موضوع نشأة الدولة العثمانية مثار نقد وتمحيص عدد من المؤرخين منهم المؤرخ الانكليزي كيبونز (Gibbons) الذي أورد آراءه وأفكاره في كتابه : (The Foundation of the Ottoman Empire) الذي صدر في عام ١٩١٦م، والمؤرخ التركي محمد فؤاد كوبرلي، والتي جمعت محاضراته في كتاب بعنوان "قيام الدولة العثمانية" وكذلك بول ويتك (Poul Wittak) الذي ألقى مجموعة محاضرات في جامعة لندن عام ١٩٣٧م ونشرت في السنة التالية تحت عنوان "قيام الدولة العثمانية" (The Rise of the Ottoman Empire).

ويؤكد هؤلاء المؤرخون الثلاثة بان الدولة العثمانية نشأت إمارة صغيرة في الطرف الشمالي الغربي من بلاد الأناضول (تركيا الحالية) في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ثم توسعت في شرق أوربا، لاسيما مناطق البلقان، ثم اتجهت في عهد سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) نحو منطقة المشرق والمغرب العربي.^(١٠)

١٠- للتفصيل عن الدولة العثمانية يراجع مثلا : محمد فريد بك المحاصي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت ١٩٧٧، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعادوي، جزأين، استانبول، ١٩٩٩، عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء.

الصراع الصفوي - العثماني^(١١)

كان تقدم الصفويين نحو الغرب من إيران قد شكل للسلطان العثماني خطراً لا يمكن تجاهله. كما إن أطماع الشاه إسماعيل التي لا تعرف الحدود، دفعته للعمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام من جهة وإلى الوقوف موقفاً متخاذلاً من التهديد البرتغالي لمناطق الخليج العربي من جهة أخرى.

ففي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يركزون نشاطهم في شرقي أوروبا والبلقان، ويبدل المماليك في السنوات الأخيرة من عمر دولتهم، محاولات مستميتة من أجل التصدي للخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان الشاه إسماعيل يسعى إلى استغلال الأوضاع لتحقيق أطماعه متجاهلاً المصالح الإسلامية. فرسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين في الخليج العربي والتنسيق مع القوات المعادية للدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر والشام. وبعث بوفود إلى أوروبا مفاوضاً ملوكها للتحالف ضد سلطان مصر واقتسام ممتلكاته، على أن تكون مصر وفلسطين من نصيبهم بينما يستحوذ هو على بقية بلاد الشام، وبذلك يطل على البحر المتوسط.

لقد تزامنت مشاريع الشاه هذه مع سعيه إلى انتزاع الأناضول وإنهاء الدولة العثمانية. أدرك السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)م خطر الصفويين فتحرك لمنع ذلك الخطر. وبعد أن قضى على أنصار الصفويين في الأناضول تحرك على رأس جيش جرار صوب الشرق باتجاه تبريز عاصمة الصفويين. ودر في جالديران عام ١٥١٤م الجيش الصفوي الذي يقوده الشاه إسماعيل في واحدة من أشد المعارك ضراوة، وانتهت بتحطيم الجيش الصفوي وفرار الشاه جريحاً من ميدان المعركة. وتقدم سليم فدخل تبريز في الرابع من أيلول، ثم غادرها بعد ثمانية أيام عائداً إلى بلاده. وقد تضافرت عوامل عدة حالت دون تمكن السلطان من مواصلة تعقب إسماعيل والقضاء

١١- لونكريك، أربعة قرون في تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، بغداد ١٩٨٦، ص ٣٠-١.

على الدولة الصفوية منها : قلة المون وامتداد خطوط المواصلات ووعورة المسالك وتقاعس الفرق الانكشارية، وهي عماد الجيش العثماني عن التقدم.

أسفر الانتصار العثماني في جالديران عن نتائج مهمة، فمع انه لم يمه الدولة الصفوية إلا إنه أصابها بضربة قاسية وجعلها تقبع في إيران، وتمكن العثمانيون من مد سلطانهم على أجزاء العراق الشمالية، ومنها الجزيرة والموصل وتلعفر والعمادية واربيل وكركوك وهيت وحديثة وعانة.

وقد زرع انتصار العثمانيين النفوذ الإيراني في المنطقة وهز كيان الموالين لهم، ومهد السبيل لطردهم من بقية أجزاء العراق.

وخلال ذلك استغل احد الزعماء الأكراد وهو ذو الفقار بن علي بك ضعف النفوذ الصفوي في العراق الأوسط والجنوبي، فقام في صيف ١٥٢٧م بحركة بارعة اغتال فيها إبراهيم خان والي العراق الصفوي في أثناء توجهه للقاء الشاه طهماسب. وانضمت القوة التي كان يقودها إبراهيم خان على الأثر إلى إتباع ذو الفقار وتوجه هو على رأس تلك القوات إلى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها وأعلن استقلاله عن الدولة الصفوية.

أدرك ذو الفقار منذ بداية حركته إن إمكاناته لا تقارن إزاء قوة الصفويين، ولهذا بادر إلى الاستعانة بالدولة العثمانية، فظهر ولاءه لها وأمر بذكر اسم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) في الخطبة ونقش اسمه على النقود، وبعث إليه بسفارة للإعراب عن ولاءه له. لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش عام ١٥٢٤م جيشاً كبيراً تقدم به إلى بغداد وفرض عليها الحصار حتى تمكنت القوات من دخول بغداد ووضع قوات لتعزيز دفاعات المدينة ثم عاد إلى قزوین. وفي الوقت الذي سيطرت فيه القوات الصفوية على بغداد تعرضت البصرة إلى الحملة البرتغالية الأولى.

لقد لفت هذان الحادثان : عودة الاحتلال الإيراني إلى العراق والتهديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني إلى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظراً لسلسلة التحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الأوروبية، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية منصرفة إلى قتال الدولة الرومانية المقدسة في شرق أوربا والبحر المتوسط وشمال أفريقيا. ولهذا بدا السلطان القانوني يفكر جدياً في مد سلطانه على العراق، واخذ بالاستعداد لإرسال حملة كبيرة للاستيلاء على بغداد وبقية أنحاء العراق.

الاحتلال العثماني للعراق^(١٢)

اصدر السلطان العثماني سليمان القانوني في عام ١٥٣٣م أمره إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا بالتوجه بقوات عثمانية إلى أذربيجان، وقد نجح الصدر الأعظم باختراق أذربيجان والاستيلاء على تبريز في تموز ١٥٣٤م ولتحقيق نتيجة حاسمة ضد الصفويين، سار السلطان القانوني على رأس جيش متجهاً إلى تبريز، ومن هناك تحركت القوات متجهة إلى السلطانية جنوبي بحر قزوين للقاء الشاه طهماسب والاستيلاء على عاصمته قزوين.

أوقعت القوات العثمانية هزيمة كبيرة بالقوات الصفوية، وانفتح الطريق أمامها إلى قزوين، ولكن سوء الأحوال الجوية بسقوط الأمطار والثلوج جعلت سير القوات العثمانية وعربات المدافع صعبة جداً، فأصبح تحقيق الهدف أمراً مستحيلاً، فأمر السلطان جيشه بالانحراف نحو بغداد، وسلك الجيش العثماني طريق همذان بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشرق، وبذلك قطعت القوات العثمانية إمكانية نجدة الصفويين لحاميتهم في بغداد.

١٢ - للتفاصيل عن الاحتلال العثماني للعراق يراجع: لونكريك، المصدر السابق، عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ثمانية أجزاء، ويتضمن تاريخ العراق بعد سقوط الدولة العباسية إلى الاحتلال البريطاني للعراق.

وخلال سير القوات العثمانية باتجاه بغداد تمكنت تلك القوات من السيطرة على المناطق التي تتواجد فيها القوات الفارسية، وعند اقتراب القوات العثمانية من بغداد هرب حاكمها الإيراني محمد خان بعد أن ينس من وصول الإمدادات إليه.

دخل الصدر الأعظم بغداد في ٣١ كانون الأول ١٥٣٤م وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان القانوني. وشدد على عدم إلحاق الأذى بالأهالي، وأعلن الأعيان وشيوخ القبائل والوفود من مختلف المدن ولاءهم للسلطان العثماني وبذلك سيطر العثمانيون على واحد من الطرق التجارية المهمة التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا.

وبعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العراق قسمته إلى أربع ولايات: بغداد، الموصل، شروز والبصرة. ورأس الجهاز الحكومي الوالي وهو مسؤول عن الإدارة المدنية والعسكرية ويساعده عدد من الموظفين لإدارة الولايات.^(١٣)

وخلال مدة حكم العثمانيين من ١٥٣٤م وحتى الغزو الإيراني للعراق مرة أخرى في ١٦٢٣م واجهت الحكم العثماني للعراق مشاكل مع القبائل العراقية في جنوب العراق وشماله، فضلاً عن محاولة بكر صوباشي التي أدت إلى احتلال الصفويين للعراق فقد أراد بكر صوباشي حكم بغداد، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك فقرر بكر صوباشي الاستعانة بالشاه عباس الصفوي (١٥٨١-١٦٢٩) وعرض عليه استعادته لجعل الخطبة والنقود باسمه بشرط أن يبقى حاكماً في بغداد.

وافق الشاه فوراً وأرسل جيشاً بقيادة صفي قلي خان إلى بغداد إلا أن بكر صوباشي طلب من القوات الإيرانية العودة إلى فارس بعد موافقة الحكومة العثمانية على إصدار فرمان بتوليته الحكم في بغداد ولكن الشاه تقدم على رأس جيش جديد لاحتلال بغداد، وشجعه ذلك انشغال الحكومة العثمانية بتمرد الانكشارية الذي أطاح بالسلطان عثمان الثاني وتنصيب مراد الرابع سلطاناً جديداً (١٦٢٣-١٦٤٠).

١٣- للتفاصيل يراجع: خليل علي مراد: تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني (١٦٣٨-١٧٥٠)م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، جامعة بغداد ١٩٧٦.

استعد بكر صوباشي للمقاومة، وحاصرت القوات الإيرانية بغداد في عام ١٦٢٣م، واستمر الحصار ثلاثة أشهر حتى تمكنت قوات الشاه من دخول بغداد في ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٣م، وبعد أربعة أشهر عين الشاه حاكم همدان صفي قلي خان على بغداد. وهكذا انتهت حركة بكر صوباشي بخروج بغداد من سيطرة العثمانيين لتقع تحت الاحتلال الصفوي.

لقد كانت سيطرة الصفويين على بغداد أمراً في غاية الخطورة بالنسبة للدولة العثمانية، فأرسلت حملة في عام ١٦٢٥م بقيادة الصدر الأعظم حافظ باشا، وحاصر بغداد ستة أشهر ولكنه فشل في دخول المدينة. ثم أرسلت حملة ثانية في عام ١٦٣٠م بقيادة خسرو باشا حاصرت بغداد أربعين يوماً وفشلت هي الأخرى في دخول بغداد. لذلك تحرك السلطان مراد الرابع على رأس قوة كبيرة في عام ١٦٣٨م والتحقت بجيشه قوات من عدد من مدن الأناضول، فضلاً عن مجموعة من أفراد القبائل العربية. وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٨م وصلت القوات العثمانية قرب بغداد، وأقيم معسكر السلطان بالقرب من الاعظمية.

وكان عدد أفراد الحامية الإيرانية في بغداد يزيد على ثلاثين ألف رجل معززة بالسلاح والذخيرة، وبعد حصار دام أربعين يوماً تمكنت القوات العثمانية من السيطرة على الأبراج المحيطة بالمدينة، وتم الاتفاق على إنهاء المقاومة وانسحاب الإيرانيين من بغداد لكن بعض المدافعين رفضوا الانصياع لأمر التسليم فحصلت مواجهات سقط فيها عدد من القتلى ثم سيطرت القوات العثمانية على المدينة واتخذت الإجراءات لتنظيم إدارة بغداد.

ولقد استمر الحكم العثماني في العراق حتى قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر، عدا مدة حكم المماليك (١٧٥٠-١٨٣١).^(١٤)

١٤- للتفاصيل عن حكم المماليك يراجع: عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، ج١، لوندريك، المصدر السابق، علاء نورس، حكم المماليك في العراق (١٧٥٠-١٨٣١)م، رسالة ماجستير غير منشورة، مليّة الآداب، جامعة بغداد ١٩٧٥.

الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر^(١٥)

كان المماليك منذ منتصف القرن الثالث عشر، يحكمون الجزء الغربي من المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن. وبعد تغير طرق التجارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة أوربا مع الشرق إلى هذا الطريق الجديد بدلاً من مرورها بمصر، عانت الدولة المملوكية تدهوراً في أوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. إذ فقد المماليك مورداً مالياً كبيراً، وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصادي على عاتق الطبقات الشعبية الكادحة من حرفيين ومزارعين إذ فرضت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب آنذاك. هذا فضلاً عن تخلف النظم المملوكية في الإدارة والجيش.

كانت علاقة الدولة العثمانية - المملوكية حتى أواخر القرن الخامس عشر علاقة مجاملة ومؤازرة. عن طريق المراسلات وتبادل الوفود والهدايا، لكن في العقد الأول من القرن السادس عشر حدث تبدل في طبيعة تلك العلاقات وكان السبب في ذلك ظهور الخطر الصفوي في إيران للسيطرة على المشرق العربي، وكذلك الغزو الاستعماري الأوربي الإسباني والبرتغالي للمنطقة العربية سواء في الخليج العربي أو البحر الأحمر والمغرب العربي.

وكانت أول المواجهات العسكرية بين القوات العثمانية وقوات إسماعيل الصفوي جرت في عام ١٥١٤م إذ حققت القوات العثمانية انتصاراً على الصفويين في معركة جالديران، واخذ العثمانيون يخططون للاستيلاء على الشام ومصر، فدخلت العلاقات العثمانية - المملوكية مرحلة سلبية وصلت إلى حد الحرب بين الدولتين. بعد التهديد العثماني لحدود الدولة المملوكية.

١٥ - للتفاصيل عن الحكم العثماني في بلاد الشام ومصر يراجع: عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت، دمشق ١٩٦٨.

قامت الحرب بين الدولتين، العثمانية والمملوكية، في ٢٤ آب ١٥١٦م في سهل مرج دابق بالقرب من مدينة حلب، وكان السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) م يقود الجيش العثماني. أما الجيش المملوكي فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١-١٥١٦) م، وتمكن الجيش العثماني من الانتصار على قوات المماليك، ودخل السلطان سليم الأول مدينة حلب في ٢٨ آب ١٥١٦م، ثم توجه بعدها إلى دمشق فوصلها في ٢٧ أيلول. وقد أبقى السلطان العثماني النظام الإداري في الشام على ماكانت عليه أيام المماليك، ثم أجرى بعض التغييرات الإدارية وبما ينسجم والوضع الجديد، برفع شأن المدن وتحويلها إلى مراكز إدارية رئيسية متخذاً الوحدة الإدارية العثمانية وهي السنجق (اللواء) أساساً للتقسيم، وبذلك ركز السلطة الإدارية والعسكرية العثمانية في الشام.

خلال ذلك كان قادة المماليك يخططون لإعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني لاسيما بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر وإسقاط دولة المماليك.

اتجه السلطان سليم نحو جنوب سوريا واحتل فلسطين ثم اجتاز صحراء سيناء ووصل إلى شواطئ نهر النيل مطلع عام ١٥١٧م. ولقد حاول المماليك بقيادة (طومان باي) تجميع قواهم وأقاموا خطأً دفاعياً عند الصالحية لعرقلة الزحف العثماني. غير إن العثمانيين بعد استيلائهم على غزة تجنبوا الخط الدفاعي وانحرفوا نحو الجنوب ودخلوا الدلتا، وفي مشارف القاهرة عند (الريديانية) حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧م وانتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة بعد ثلاثة أيام من المعركة وفي ١٧ نيسان من العام نفسه اعدم سلطان المماليك بعد وقوعه في أيدي العثمانيين. وبذلك انتهى حكم المماليك الذي امتد من ١٢٦٠م وحتى عام ١٥١٧م ليبدأ العهد العثماني.

قام السلطان سليم الأول بتقسيم مصر إلى أربع وعشرين مديرية وصادر قراراً بتعيين يونس باشا أول وال عليها، واستمر هذا الوضع في مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر. (١٦)

كان سقوط دولة المماليك على أيدي العثمانيين جعل الحجاز تتبع الحكم العثماني، وذلك لأن المماليك كانوا أصحاب السيادة عليه. وقد أعلن زيد الدين بركات شريف مكة ولاءه للسلطان العثماني بعد أن وصله فرمان منح الأمان، وبذلك دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولاً سلمياً، وقد أدى ضم الحجاز إلى العثمانيين لبسط سيطرتهم في البحر الأحمر فادى ذلك إلى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز.

أما علاقة العثمانيين باليمن فبدأت واضحة بعد سقوط دولة المماليك في مصر عام ١٥١٧م. ودخول السلطان سليم الأول مدينة القاهرة وابقى حاكمها اسكندر الجركسي في منصبه. لذلك كانت السلطة العثمانية في اليمن وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي بشكل عام ضعيفة، ولم تتمكن الدولة العثمانية حتى في أوج قوتها أن تفرض سيطرتها الكاملة على تلك المناطق. (١٧)

وبسبب أهمية موقع اليمن قررت الحكومة العثمانية إرسال حملة بقيادة سليمان باشا عام ١٥٣٨م للسيطرة على البلاد، ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الأساطيل الأجنبية. وفعلاً نجحت الحملة في احتلال عدن عام ١٥٣٨ وتعرز عام ١٥٤٥م، كما احتلت القوات العثمانية العاصمة صنعاء عام ١٥٤٧م، وأصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة ألوية (سناجق) ، هذا وقد ظلت اليمن في مدة خضوعها للحكم العثماني الأول (١٥٣٨-١٦٣٥) م تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية. (١٨) ومع هذا فقد استفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات إلى الخليج العربي بقصد إنقاذه من ضغط الغزو البرتغالي ولقد نجح العثمانيون فعلاً من إيقاف التوسع البرتغالي في البحر الأحمر، ولكنهم أخفقوا في تحطيم السيطرة

١٦- سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، الموصل ١٩٨٦، ص ٦٩-٧٣.
١٧- للتفاصيل يراجع: رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العرب ، ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة ١٩٧٠.
١٨- للتفاصيل عن الاحتلال العثماني الأول لليمن يراجع: مصطفى السيد سالم، الفتح العثماني الأول لليمن - القاهرة ١٩٧٣، (١٥٣٨-١٦٣٥).

البرتغالية في البحار الشرقية، بسبب إهمالهم في استخدام القواعد المهمة في البحار العربية. ومنها الجزر والسواحل الإفريقية. فضلاً عن اعتمادهم على حوض البحر الأحمر فقط في صد التحدي البرتغالي، كما إن سياسة القسوة والشدة ضد السكان في اليمن وشبه الجزيرة العربية جعلت السكان العرب لم يتعاونوا مع العثمانيين آنذاك.^(١٩)

لم تتمكن القوات العثمانية في استمرار سيطرتها على اليمن بسبب الظروف الصعبة التي عاشتها تلك القوات، والضربات الموجهة لقوات اليمن المحلية بقيادة الإمام المؤيد محمد بن القاسم، وتعد معركة "الصافية" من أشهر المعارك التاريخية بين القوات اليمنية والعثمانيين خلال العهد العثماني الأول. فقد خسر فيها العثمانيون قوات كثيرة، ولذلك صدرت الأوامر من الحكومة العثمانية بسحب ما تبقى من القوات العثمانية من اليمن في عام ١٦٣٥م.

وجرت محاولات عديدة من العثمانيين للسيطرة على اليمن مرة ثانية ولكنها لم تتحقق إلا في العام ١٨٧٢م واستمر ذلك الاحتلال حتى عام ١٩١٨م.^(٢٠)

وبذلك تمكنت الدولة العثمانية من السيطرة على مناطق المشرق العربي بشكل مباشر من خلال الإدارة العثمانية للبلاد أو بشكل غير مباشر لبعض المناطق في شبه جزيرة العرب والخليج العربي بالاعتراف بالسيادة العثمانية لتلك المناطق.

وفيما يخص وجود النفوذ العثماني وامتداده وتطوره في المشرق العربي، فإن هناك ثمة ملاحظات يجب ذكرها وهي:

أولاً: إن الفتح العثماني في القرن السادس عشر قد أوجد وحدة سياسية في المنطقة بعد تفككها بسقوط الدولة العباسية منتصف القرن الثالث عشر، وهي الوحدة التي يتخذها المؤرخون نقطة البداية في تاريخ المشرق العربي.^(٢١)

١٩- سيار كوكب علي الجميل، المصدر السابق، ص ١٠٢-١١٠.
٢٠- للتفاصيل يراجع: فاروق عثمان أباطة، الحكم العثماني في تايمين (١٨٧٢-١٩١٨)، القاهرة ١٩٧٥.
٢١- للتفاصيل يراجع: عمر عبد العزيز عمر، المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٧١.

ثانياً : إن الدولة العثمانية حتى في أوج عظمتها لم تمتد سيطرتها إلى بعض مشيخات أو إمارات الخليج العربي أو خليج عمان، ولم تسيطر سيطرة فعلية على قلب شبه الجزيرة العربية.

ومع ذلك فقد ظل العثمانيون يدعون حقوقاً في السيادة على كل شبه الجزيرة أو " المربع العربي " الذي يحده الهلال الخصيب من الشمال الشرقي والشمال الغربي ثم البحر الأحمر من الغرب وخليج عدن وبحر العرب والمحيط الهندي من الجنوب، ثم خليج عمان من الجنوب الشرقي والخليج العربي من الشرق. (٢٢)

الاحتلال العثماني لأقطار المغرب العربي (٢٣)

أخذ السلطان سليم الأول على عاتقه بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الأوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركات عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من الإطماع الأوربية، والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الأندلس بعد سقوط الدولة العربية الإسلامية في عام ١٤٩٢م. (٢٤)

ولقد كان من ابرز أولئك القادة البحاران عروج بن يعقوب وأخوه خير الدين باربروس (ذو اللحية الحمراء) اللذان كانا يملكان أسطولاً قوياً يعمل في البحر المتوسط، واللذان دخلا في صراع طويل مع اسبانيا لاسيما في الجزائر.

استعان خير الدين بالعثمانيين لمساعدته في طرد الأسبان من الجزائر، وذلك لأنه أدرك من البداية ضعف موقفه السياسي وضالة إمكانياته العسكرية ولقد رحب السلطان

٢٢- للتفاصيل يراجع: رجب حراز، المصدر السابق، فاروق عثمان أباطة، المصدر السابق.

٢٣- صلاح العقاد، تاريخ المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث والمعاصر.

٢٤- للتفاصيل يراجع: عبد الحميد بن أبي زيان، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر ١٩٧٢.
محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، القاهرة ١٩٦٩.

سليم بالبعثة التي أرسلها خير الدين لطلب المساعدة العثمانية. وأرسل إليه في عام ١٥١٨م قوة من الانكشارية قوامها ستة آلاف رجل بمدافعهم وعتادهم الحربي.

ولقد نجح خير الدين في احتلال قلعة البينون (Penon) يوم ٢٧ أيار ١٥٢٩م بعد سلسلة من المعارك الدامية ضد المحتلين الأسبان، وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من هذه القلعة. إن احتلال قلعة البينون ثبت وضمن امن مدينة الجزائر، ويعد ذلك في الحقيقة بداية السيطرة العثمانية على المغرب العربي.

فقد استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين إلى اسطنبول ليتفق معه حول الإجراءات التي يمكن اتخاذها لإيقاف الزحف الأوربي والعمل على تثبيت أقدام العثمانيين في المغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي ومنحه السلطان لقب ((قبودان باشا)) ، وزير الحربية مع تمتعه بالسلطة الكاملة في الجزائر والاعتراف بسيادة السلطان العثماني.

تمكن خير الدين في ١٨ نيسان ١٥٣٤م من الاستيلاء على مدينة تونس، ولكن حاكمها استنجد بالأسبان مما اضطر خير الدين للانسحاب من المدينة واحتلالها من قبل الأسبان في ٢١ تموز ١٥٣٥م وأعادوا الحسن الحفصي إلى عرشه بعد أن عقدوا معه اتفاقاً ضمن لهم مصالحهم في تونس.

بالغ الأسبان في انتقامهم من التونسيين بسبب انضمامهم إلى قوات خير الدين مما أدى إلى اندلاع الانتفاضات الشعبية ضد صنيعه الأسبان حسن الحفصي اضطر الأخير إلى الفرار فاستدعى التونسيون ابنه أبا العباس احمد والي عنابه لتولي الحكم.

وجه الأسبان أسطولهم إلى جزيرة جربة عام ١٥٦٠م فاصطدم به الأسطول العثماني ودحره وكان من بين الأسرى الأوربيين الكونت سيكالا الذي أعلن إسلامه وعرف باسم سنان باشا. وكان له فيما بعد دور كبير في قيادة الأسطول العثماني وتحرير تونس من

السيطرة الاسبانية في أواخر عام ١٥٧٤ فأصبحت تونس ولاية عثمانية حتى عام ١٥٧٨م يشرف على إدارتها والي الجزائر.

أما ليبيا فكان الأسبان قد احتلوا ميناءها طرابلس في عام ١٥١٠م ، وفي عام ١٥٣٥م سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد أن اشترطوا عليهم الدفاع عنها ضد العرب.

وفي أعقاب تولي خير الدين قيادة الأسطول العثماني في عام ١٥٣٣م وضع خطة للاستيلاء على طرابلس إلا أن التدخل الاسباني في عام ١٥٣٥م أدى إلى فشل الخطة وفي ١٨ أيلول ١٥٥١م نجحت السفن العثمانية في السيطرة على الميناء ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية.

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس ، واستطاع خلال وجوده في الجزائر من تحقيق انتصارات عديدة أقلقت الأوربيين ، ولقد تضررت اسبانيا من النجاح العسكري الذي حققه خير الدين في الشمال الإفريقي. ولكنه لم يعمر طويلاً فقد توفي خير الدين بربروسا في عام ١٥٤٥م.

وبعد وفاته استمر الصراع العربي والعثماني ضد الغزاة الأجانب لمنعهم من السيطرة على مناطق شمال أفريقيا . وحصل تغيير في طبيعة نظام الحكم إذ أصبحت تونس وطرابلس الغرب والجزائر يحكمها باشوات يعينون من السلطان العثماني.

أما إقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر وقد أعلن زعماء إقليم فزان من أسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين. وتولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين، كان دار غوث باشا أشهرهم وهو الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها. كما أنشأ فرق الانكشارية هناك. على إن اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكرياً بالدرجة الأولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية.

أما مراكش (المغرب) الواقعة في الركن الغربي من الوطن العربي فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر، وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية منذ منتصف القرن السادس عشر وحماية بلادهم من غزوات البرتغاليين والعثمانيين.

لقد اتسم تاريخ العثمانيين في المغرب العربي بظاهرة ضعف السيطرة العثمانية على ولاياته لاسيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وذلك لبعدها المسافة التي تفصل بين هذه الولايات وعاصمة الدولة العثمانية ، ثم لضعف الإدارة العثمانية فظهرت في ليبيا والجزائر وتونس اسر حاكمة تدين بالولاء الاسمي للعثمانيين.^(٢٥)

ظهور الإمارات المحلية في الوطن العربي خلال العهد العثماني

الجليليون في الموصل^(٢٦):

استطاعت أسرة آل عبد الجليل العربية المعروفة بالنفوذ والثراء الواسع السيطرة على مقدرات مدينة الموصل، بعد أن قدمت للعثمانيين خدمات جلى أبان حروبهم المتعددة مع الإيرانيين، وقد تميزت ولاية الموصل خلال مدة حكم الجليبيين الممتدة من ١٧٢٦ إلى ١٨٣٤م بشخصية محلية واضحة المعالم ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً وسياسياً واقتصادياً. وبرز من حكامها ولاية عديديون لعل من أبرزهم الحاج حسين باشا أجليلي (١٧٣٠-١٧٥٧) م الذي قاد حركة المقاومة الباسلة أبان تعرض الموصل لحصار نادر شاه عام ١٧٤٣م. وكان لنجاح الحكم أجليلي في دفع الخطر الإيراني والحيلولة دون امتداده نحو الشام والأناضول اثر كبير في تقوية الأسرة الجليلية لدى الباب العالي من جهة والتفاف الموصليين حولها من جهة أخرى.

ولقد حاول بعض الولاة المماليك في بغداد (١٧٥٠-١٨٣١) التدخل في شؤون الموصل وفرض سيطرتهم عليها، وإبعاد الجليبيين عنها إلا أنهم فشلوا في ذلك،

٢٥- للتفاصيل يراجع:

- الطاهر احمد الزاوي، ولاة طرابلس في بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت ١٩٧٠.

- محمد العربي الزبيدي، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر ١٩٧٥.

٢٦- للتفاصيل يراجع: سليمان الصانع، تاريخ الموصل، ج ١، القاهرة ١٩٧٢.

وتعاون الجليليون مع حكام السلمانية من آل بابان ضد محاولات ولاية بغداد المماليك التدخل في شؤونهما بين الأعوام (١٨١٠-١٨١٣) م.

وفي عام ١٨٢٦م قادت عائلة العمري انتفاضة ضد الجليليين بسبب احتكار المواد الغذائية، وقد نجحوا في طرد يحيى باشا أجليلي، ولكنه عاد لحكم الموصل ثانية، ولم يرض أهل الموصل عن ذلك فثاروا ثانية عام ١٨٢٨م وتزعم قاسم العمري الثورة ضد الجليليين، واستطاع العمري الحصول على موافقة العثمانيين في اسطنبول لان يتولى حكم الموصل.

ولا شك إن تولية قاسم العمري كانت من الخطوات الأولى الذي اتخذها السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) م للقضاء على العصبية والأسر الحاكمة والعمل على تطبيق النظام المركزي العثماني المباشر.

توفي قاسم العمري خلال إحدى المعارك مع ممالك بغداد فحاول يحيى باشا وكان منفياً في حلب منذ عام ١٨٢٨م ، العودة إلى الموصل، وفعلاً نجح في السيطرة عليها عام ١٨٣٢م بعد تحالفه مع صفوك شيخ عشائر شمر الجربا.

ولكن الحكومة العثمانية أرسلت قواتها لإعادة الموصل إلى السيطرة المركزية للدولة، وفعلاً نجحت القوات العثمانية في القضاء نهائياً على الأسرة الجليلية والقبض على يحيى باشا أجليلي وإرساله إلى اسطنبول. ومما ساعد القائد العثماني من دخول الموصل وإلقاء القبض على الجليلي، لان الأسرة كانت فقدت شعبيتها في المدينة ولم يعد الأهالي يرغبون في استمرارها في الحكم.

ولقد شهد الحكم المحلي الجليلي في الموصل حادثين أساسيين، يتمثل الأول بنشر المذهب الكاثوليكي وانتشاره من خلال الإرساليات التبشيرية، ويتمثل الثاني بولادة حركة الإصلاحية السلفية الدينية على يد بعض الشيوخ العلماء في الموصل خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

أما من الناحية الاقتصادية فقد تطورت علاقات الموصل الاقتصادية بغيرها من الأقاليم والسناجق والتخوم المجاورة لها والمرتبطة بها من خلال المسالك البرية والنهرية. وبقت الموصل مدينة منتجة وذات مؤسسات إدارية مهيمنة على جميع المسالك التي تربط الشرق بالغرب مستثمرة حركة التجارة العالمية من خلال تطور التجارة الإقليمية والمحلية.

وتطورت صناعاتها التي اعتمدت أوربا عليها كالسروج والأحزمة والسجاد اليدوي المطرز بالأزهار، ومصانع الحديد والنحاس، فضلاً عن المنسوجات المختلفة التي تسمى "الموصليين" الذي كان يصدر إلى أوربا. وهذا أدى بالتالي إلى تطور في التنظيمات الحرفية والعلاقات الإنتاجية بين الأصناف المختلفة.

أما الجانب الآخر من النهضة، فقد حفلت الموصل بارتقاء المدونات الأدبية التي كتبت أو الفت في فترات مختلفة من القرن الثامن عشر، تنوعت فيها حقول الآداب والعلوم، كما ازدادت المدارس العلمية، وازدهرت اللغة العربية وعلومها. (٢٧)

وبعد نهاية حكم الجليليين أسندت ولاية الموصل إلى محمد سعيد آل ياسين، وهو رجل من الموصل لكنه لم يستمر طويلاً في الحكم لضعف إدارته لذلك صدر في عام ١٨٣٥م فرمان سلطاني بتعيين محمد اينجه بيرقدار والياً على الموصل وكلف كذلك بمهمة إعادة الحكم العثماني المباشر في المنطقة الكردية والقضاء على الإمارات المستقلة فيها.

٢٧- للتفاصيل يراجع: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي (١٧٢٦-١٨٣٤) م، النجف ١٩٧٥.

آل ظاهر العمر في فلسطين^(٢٨)

ظهرت في فلسطين بصفة خاصة قوى محلية أبرزها أسرة الشيخ ظاهر العمر الزيداني. الذي ينتمي إلى الزيدانية، وقد ارتحل مع أسرته إلى بلاد الشام في أواخر القرن السابع عشر، واستقر به المقام في صفد وحول جزيرة طبرية.

ولما توفي عمر حاكم صفد اتجهت أنظار أهالي طبرية و صفد إلى ظاهر العمر ليكون حاكماً عليهم، واضطر محمد باشا والي صيدا تثبيته عليهم عام ١٧٣٣م.

كان ظاهر العمر منذ بداية حكمه رجلاً طموحاً، انهمك في توسيع ممتلكاته التي منحها أمير لبنان لوالده، فبدأ يوسع منطقة نفوذه على حساب دمشق وصيدا، ثم على يافا والرملة ونابلس عام ١٧٣٥م و صفد عام ١٧٣٩م، واستطاع أن يرسخ حكمه فيها مستغلاً حالة الصراع المزمع بين العثمانيين والدروز.

وكانت له علاقات اقتصادية مع التجار الفرنسيين، واتخذ ميناء عكا مقراً له عام ١٧٤٦م. في حين عمق العلاقات الودية-الإقليمية مع آل العظم في دمشق لاسيما خلال حكم اسعد باشا العظم (١٧٤٣-١٧٥٧) م هكذا تدعم مركز الظاهر العمر في الجليل والأقاليم الساحلية في فلسطين، وقد وافقت الحكومة العثمانية رسمياً على الاعتراف بممتلكاته ومكتسباته.

ولكن بعد سنوات اختل توازن القوى الإقليمية في جنوبي بلاد الشام وفي غير صالح ظاهر العمر بعد تأليف اتحاد إقليمي ضده فكان لابد من التحالف مع مصر لإعادة صيغة التوازن الإقليمي.

وهكذا قطع علي بيك الكبير حاكم مصر، علاقاته مع الباب العالي ونال مساعدة روسيا التي أرسلت أسطولها إلى شرقي البحر المتوسط. لمساعدة ظاهر العمر، ولكن ذلك التحالف لم يحقق الأهداف في إعادة السيطرة على دمشق.

٢٨- للتفصيل يراجع: ميخائيل الصباغ المكاري، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، لبنان، د.ب.

لقد أصبحت أوضاع ظاهر العمر صعبة ومعقدة، إذ عاد عثمان باشا الصادق عدو ظاهر العمر ليقاتل وطلب المساعدة من الشهابيين في لبنان إلا إن ظاهر العمر هزم الصادق قبل أن تنضم القوات من لبنان إليه ولكن ظاهر العمر فشل في السيطرة على بيروت فاتجه جنوباً لمحاصرة يافا التي ثارت عليه فتمكن من دخولها في شباط ١٧٧٣م.

ولكن حصل أن تأمر محمد أبو الذهب حاكم مصر المملوكي مع "علي" ابن الشيخ الظاهر العمر الذي خان أباه لطول بقائه في السلطة، فانطلقت الحملة من مصر في آذار ١٧٧٥م مستولية على يافا بالقوة، وقام علي بطرد أبيه من عكا التي استولى عليها أبو الذهب فهرب الشيخ ظاهر العمر إلى صيدا.

لقد خشيت الدولة العثمانية على اثر ذلك الانتصار لتحالف أبو الذهب وعلي، أن تؤول ممتلكات ظاهر العمر إلى حكومة مصر المملوكية القوية، فأرسلت حملة بقيادة حسن باشا لاحتلال عكا وبقية الأقاليم. وفي عكا كان المرض قد تفشى في جيش أبي الذهب، وقد قضت الحمى الشديدة على حياته فعاد الجيش بجثمانه إلى القاهرة.

أسرع ظاهر العمر نحو عكا التي خشي أن يسلمها المرتزقة إلى ابنه علي، ولكن حصل تأمر عليه من قبل احد قواده، مع أمير لبنان الشهابي مع الجزائر والي دمشق العثماني الذي قامت قواته البرية بمحاصرة عكا براً كما كان الأسطول العثماني يحاصرها بحراً. وعندما تأكد ظاهر العمر من خيانة قائد جيشه، حاول الهرب، ولكنه قتل في أثناء ذلك بيد احد رجاله الذين خانوه.

وبوفاة الشيخ ظاهر العمر عام ١٧٧٥م تنتهي صفحة زعامة قوية لرجل شديد المراس، وتنتهي معه حياة دولته المستقلة. لتبدأ حكومة جديدة في عكا زعيمها احمد باشا الجزائر ليمتد حكمه من صيدا وحتى عكا، وقد عمد الجزائر إلى بناء أسطول بحري، وجيش من المشاة بلغ عدده قرابة ألف جندي، كما اصدر قراره باحتكار بعض المرافق التجارية في مناطقه لتغطية نفقات ولايته الضرورية. وظل يحكم المنطقة قرابة ثلاثين

سنة، وقد بلغ أوج مجده عام ١٧٩٩م حين نجح في إنقاذ عكا من حصار الفرنسيين لها وإيقاف زحف نابليون بونابرت وإبعاده عن الشام.

آل معن في لبنان

كان السلطان العثماني سليم الأول قد أبقى عام ١٥١٦م الأمير فخر الدين المعني الأول في إقطاعية الشوف في جبل لبنان، واعترف بكل امتيازاته المتوارثة في إدارة منطقته وفق تقاليد أجداده التي ترجع إلى عهد المماليك، وقد اشترط السلطان سليم الأول على الأمير فخر الدين، دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة العثمانية.

وحيث ظهرت بوادر الضعف على الدولة العثمانية وانشغلت بحروبها الطويلة على الجبهتين الإيرانية والنمساوية سعى الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف بالكبير (١٥٧٢-١٦٣٥) إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية محاولاً تأسيس دولة قوية تضم سوريا ولبنان وفلسطين.

لقد استطاع الأمير فخر الدين الثاني (الكبير) أن يوسع حدود إمارته جبل لبنان حتى وصلت إلى شمال سوريا وداخل فلسطين وأبواب دمشق. وكان هذا التوسع الكبير خارج إطار جبل لبنان جعل مشايخ تلك المناطق يدينون بالولاء له وأصبحوا يلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم له لقاء إدارتهم شؤون مقاطعاتهم. كما اتصل الأمير بدولة توسكانيا الإيطالية وعقد معها اتفاقية سرية عام ١٦٠٨م تقتضي بتزويده بالمعدات والقطع البحرية. وقد انصرف لإنشاء الحصون وتقوية جيشه الذي بلغ تعداده آنذاك أربعين ألف مقاتل.

إن ذلك الاتجاه الاستقلالي أدى إلى حدوث صراع شديد بين الأمير فخر الدين ووالي دمشق. ففي عام ١٦١٣م طلبت الحكومة العثمانية من والي دمشق التوجه الى جبل لبنان والقضاء على الأمير فخر الدين، كما أوعزت إلى ولاية حلب وديار بكر وطرابلس

بمؤازرة والي دمشق في مهمته وتألقت قوة قوامها ثلاثون ألف مقاتل. وقد استطاع الأمير فخر الدين الصمود قرابة تسعة أشهر اضطر بعدها إلى مغادرة حلب إلى إيطاليا، وبعد خمس سنوات صدر العفو عنه، فعاد إلى لبنان واستلم الولاية ثانية، لكنه أعلن التمرد على الدولة العثمانية عام ١٦٣٥م إلا أنه فشل وتمكنت الدولة العثمانية من شنقه.

لقد عاد الحكم العثماني المباشر إلى جبل لبنان، واستعان العثمانيون بالأمرء الشهابيين (١٦٩٧-١٨٤١) م في الوفاء بالتزامات المنطقة المالية تجاه الدولة العثمانية. وتعاون الأمير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨-١٨٤٠) م مع محمد علي أبان سيطرته على بلاد الشام عام ١٨٣١م، كما اشترك الشهابيون في قمع العديد من الانتفاضات التي حدثت ضد إبراهيم باشا في عام ١٨٣٣م. وكان انهيار حكم محمد علي باشا في بلاد الشام عام ١٨٤٠م إيذاناً بنهاية الأمير بشير الثاني الشهابي الذي غادر إلى منفاه في مالطا.

آل العظم في سوريا

حدث في سوريا تطور مشابه لما حدث في بعض الولايات العربية الأخرى. إذ اشتد الصراع بين الانكشارية والقوى المحلية، وكان من الخطر استمرار هذا الصراع والفوضى الناجمة عنه، لأن ذلك يسيء إلى السلطان العثماني، إذ إن دمشق كانت آنذاك مركزاً لتجمع قوافل التجار والحجاج والتي كثيراً ما تتعرض لسلب عشائر بادية الشام. لذلك عزل السلطان العثماني الوالي المسؤول عن تلك الفوضى وهو نصوح باشا (١٧٠٩-١٧١٥) م، وجاء بعده ولاة لم يتمكن احدهم من فرض سيطرة الدولة وتحقيق الأمن والاستقرار.

لذلك اضطر السلطان إلى تعيين إسماعيل باشا العظم في آذار ١٧٢٥م والذي كان معروفاً بالعدل فأحبه الناس، وقد استطاع السيطرة على دمشق مستعيناً بجنده من المغاربة العرب والمماليك.

وأسرة العظم عربية من قبيلة معن هاجر احد رجالها إلى قونية في الأناضول ومنها قدم أحفاده إلى سوريا بعد استيلاء السلطان سليم عليها فكان منهم ولاية ومتصرفون. وقد سيطرت على الكثير من الأراضي والمزارع ووسعت أوقافها الخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية. هذا وقد استمرت أسرة آل العظم في حكم دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ومما ساعدها على ذلك حاجة الدولة إليها للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته الاستقلالية عن الدولة العثمانية

الأسرة القرميلية في طرابلس الغرب

وفي طرابلس الغرب استطاعت أسرة محلية الوصول إلى الحكم، وهي الأسرة القرميلية التي حكمت من ١٧١١ إلى ١٨٣٥م، وقد توسع نفوذ هذه الأسرة وأصبحت علاقتها مع الدولة العثمانية علاقة اسمية، وعلى اثر احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٣٠م ظهر أمام العثمانيين خطر الدول الاستعمارية، وأدى ذلك فضلاً على نمو خطر محمد علي باشا في مصر، ومحاولاته التوسعية، إلى اهتمام العثمانيين بإعادة سيطرتهم على ليبيا.

لذلك وجه السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٥م أسطولاً بقيادة نجيب باشا قائد البحرية العثمانية إلى ميناء طرابلس عام ١٨٣٥م وقد تمكنت هذه القوة من إعادة الحكم العثماني المباشر إلى ليبيا فبدأ بذلك العهد العثماني وهو عهد الولاية الأتراك الذي استمر حتى الغزو الايطالي عام ١٩١١م.^(٢٩)

٢٩- للتفصيل: الأسرة القرميلية يراجع: عمر علي بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرميلية في ليبيا ١٧٩٥-١٨٣٥، طرابلس ١٩٦٦.

الأسرة الحسينية في تونس

نجح الأهالي في تونس في فرض احد الرجال العسكريين حاكما لولايتهم ولقبوه (الباي) ولقد اضطرت الدولة العثمانية عام ١٥٩٠م إلى الاعتراف به حاكما على تونس. وبمرور الزمن زادت سلطة (البكوات) وهم المسؤولون عن الإدارة وجمع الضرائب إلى درجة تولي السلطة، وقد عمد احدهم وهو مراد بك عام ١٦٤٠م إلى جعل الحكم في تونس وراثياً فنشأت بذلك الأسرة المرادية. ومع إن هذه الأسرة حاولت إصلاح شؤون البلاد إلا إنها ما لبثت أن دخلت في نزاعات عائلية حتى أواخر حكمها إذ تمت مبايعة باي جديد في ١٣ تموز ١٧٠٥م وهو حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية في تونس (١٧٠٥-١٨٨١) م.

ويعد حمودة باشا الحسيني أشهر بايات تونس ومدة حكمه الممتدة من ١٧٨٢ إلى ١٨١٤م تمثل أهمية كبيرة في تاريخ تونس الحديث. فهو أول من جند العرب بدلاً من الانكشارية في الجيش، وحين حاول الانكشاريون التمرد عليه عام ١٨١١م استند إلى قواته العربية التونسية في القضاء عليهم. علماً بان العلاقات الرسمية مع الدولة العثمانية كانت اعتيادية ويعترف حاكم تونس بالسيادة الاسمية للسلطان العثماني.

غزوات نادر شاه للعراق^(٣٠)

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية وبلاد فارس غير مستقرة في اغلب الفترات، ووقع صراع حاد بين الدولتين العثمانية والفارسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما تعرض العراق للغزو من قبل القوات الفارسية في عهد نادر شاه، وكريم خان الزند، كانت لها أثارها السيئة على الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للعراق وشعبه.

٣٠- للتفاصيل عن غزوات نادر شاه على العراق يراجع: علاء نورس، العراق في العهد العثماني، دراسة في العلاقات السياسية (١٧٠٠-١٨٠٠) بغداد ١٩٧٩، جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١، بغداد ١٩٧١.

ففي عام ١٧٣٢م ، بدأ نادر شاه زحفه من العاصمة أصفهان لمحاربة العثمانيين في العراق، وبعث برسالة إلى واليها آنذاك احمد باشا يتوعده فيها وينذره بأنه زاحف نحو بغداد لفتحها.

أسرع احمد باشا بتحسين مواقع الحدود في مندلي وبدره، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين، واخبر الحكومة العثمانية بالخطر الإيراني فأسرعت الأخيرة بإرسال نجدات كبيرة إلى بغداد لحمايتها من الغزو الإيراني.

أما نادر شاه فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة ألف مقاتل من الحدود العراقية واحتل موقع زهاب ثم بدا توغله في الأراضي العراقية، وواجهت القوات الإيرانية مقاومة شديدة من أهالي كركوك فعجزت عن احتلالها، كما فشلت تلك القوات في احتلال الموصل إذ تمكن واليها حسين باشا أجليلي من صد تلك القوات وإحراق الهزيمة بها، فاتجهت قوات نادر شاه نحو المقدادية وتمكنت من دحر القوات العثمانية المتواجدة فيها، كما حاصر بعد عبوره نهر ديالى مدينة بهرز، وصار على بعد عدة مراحل من بغداد.

وفي أواخر كانون الأول ١٧٣٢م بدأ نادر بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد، وجرت عدة محاولات لدخول المدينة، وأصبح الموقف في بغداد حرجاً تماماً بعد أن احكم الفرس الحصار حولها، وبدأت الهجمات تتوالى من الجانبين .

عمل احمد باشا على إدامة المقاومة وبت الروح المعنوية لإطالة أمد الثبات والصمود لحين وصول قوات عثمانية من اسطنبول.

وفي أوائل حزيران ١٧٣٣م وصلت الموصل قوات عثمانية تقدر بثمانين ألف مقاتل بقيادة طوبال عثمان باشا فاشتدت عزائم المحاصرين في الدفاع عن بغداد. وعمل نادر شاه على الزحف بخمسين ألف مقاتل لمجابهة القوات العثمانية القادمة قبل وصولها بغداد، تاركاً اثني عشر ألفاً من قواته لمواصلة حصار بغداد.

وفي صباح يوم التاسع عشر من تموز ١٧٣٣م التحمت طلائع القوتين في معركة كانت في ضراوتها واحدة من اشد المعارك بين القوات العثمانية والفارسية. وبعد قتال دام تسع ساعات متواصلة انتهت المعركة بهزيمة تامة لقوات نادر، وأرسلت رسائل الظفر من ميدان المعركة إلى السلطان العثماني والي باشا بغداد. وقد كانت خسائر الفرس تقدر بثلاثين ألف قتيل، فضلا عن فقدانهم لمدفيعتهم وذخائرهم، في وقت فقد فيه العثمانيون حوالي عشرين ألف رجل.

وفي مساء الثالث والعشرين من تموز ١٧٣٣م وصل القائد العثماني طوبال عثمان باشا قرب أسوار بغداد فاستقبله الوالي احمد باشا.

ولكن نادر شاه لم يستكين فقد شن هجوماً ثانياً على بغداد، فعبر الحدود العراقية وتوقف عند همدان في الرابع من آب ١٧٣٣م، وأعاد تنظيم جيشه في حين إن طوبال باشا قد قام بتسريح الجيوش الأجيبة إلى ولاياتها العربية والكردية، اعتقاداً منه بان الجيوش الفارسية لا يمكن إن تقوم لها قائمة بعد تلك الهزيمة، ثم انسحب من بغداد إلى اسطنبول.

أما احمد باشا فقد كان يتوقع أن نادراً لامحالة سيعيد الكرة، فرمم سور بغداد وأصلح الخندق والقلعة، وكتب إلى اسطنبول يطلب الأموال والجند.

وفي الثاني من تشرين الأول ١٧٣٣م زحف نادر بجيشه من همدان للقيام بهجوم جديد على بغداد، ولكنه اتجه لمواجهة طوبال باشا الذي كان عند أطراف كركوك ف وقعت معركة جديدة انهزمت فيها القوات العثمانية وقتل القائد طوبال باشا.

و حين سمع والي بغداد بهزيمة الجيش العثماني ومقتل طوبال باشا استعد لمقاومة الجيش الفارسي، أما نادر شاه فقد كان واثقاً تماماً من أن بغداد سوف تسقط بيده بسهولة. فبدأ زحفه نحوها، وبعث بقوة من جيشه لاحتلال الحلة والنجف وكربلاء وذلك للحيلولة دون وصول المون إلى بغداد غير إن نادر عند وصله بغداد وتطويقه لها، تلقى إخباراً تفيد بان حاكم إقليم فارس قد قام بثورة لمصلحة الصفويين، وانه نادى

بطهما سب شاهاً على البلاد مما اضطره إلى طلب الصلح بشرط أن تعاد إليه المدافع التي استولى عليها العثمانيون.

وقد كان طلب نادر شاه لعقد الصلح بمثابة نجدة لباشا بغداد نزلت من السماء، وبعد مفاوضات استمرت لمدة تزيد على سبعة أيام توصل الطرفان إلى عقد معاهدة في التاسع عشر من كانون الأول ١٧٣٣م اعتبرت فيها الحدود بين الدولتين هي التي خططتها معاهدة زهاب ١٦٣٩م. ونصت على إطلاق سراح الأسرى من الجانبين وإعادة المدافع الفارسية المستولى عليها.

وبعد عام ١٧٤١م أخذت العلاقات الفارسية-العثمانية بالتدهور الى درجة خطيرة، فكانت إيذاناً بالاصطدام المسلح بينهما من جديد، وفي تموز ١٧٤٣م عبرت القوات الفارسية حدود العراق الشرقية من جهة مندلي وشهرزور، وكان نادر أرسل مبعوثين إلى احمد باشا يطلب بتسليم بغداد وبمجرد تسلمه الخطاب، بدأ الوالي في تموين بغداد، وترميم سورها وحصونها وبعث بخطاب إلى الباب العالي يعلمه بان نادر شاه بدأ بزحفه بقصد الهجوم على بغداد ومحاولة احتلالها.

عمل نادر شاه بالتوجه إلى الموصل ليقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية في اسطنبول وبغداد مما يسهل سقوط الأخيرة بيده. فقد سبق أن أنقذت القوات العثمانية التي جاءت عن طريق الموصل بقيادة طوبال عثمان باشا بغداد من السقوط بأيدي الفرس عام ١٧٣٢.

ومع ذلك، فقد أرسل نادر قوة كبيرة تقدر بأربعين ألف جندي للحيلولة بين احمد باشا والمساعدات التي قد تصل من اسطنبول. وقد استولى جيش الشاه على جميع قرى بغداد وضواحيها، فاستعد الوالي وأهل بغداد للحصار وانتقل أهل الكرخ إلى الرصافة، وفي نفس الوقت كانت هناك قوات فارسية كبيرة تتقدم نحو البصرة.

أما نادر شاه فقد توغل في شهرزور على رأس مئة وسبعين ألفاً من جنده، وفي الخامس من آب ١٧٤٣م وصل كركوك واحتلها، ثم زحف نحو أربيل واحتلها أيضاً، ومن هناك سار إلى هدفه: مدينة الموصل.

حصار الموصل

في الوقت الذي احتل فيه نادر شاه كركوك، كان الباب العالي قد أمر والي الموصل حسين باشا الجليلي بوضع المدينة في حالة دفاع، وأصدر أوامره إلى والي حلب بالتحرك مع قواته لتعزيز قوة الموصل، وعند وصوله ارتفع عدد رجال حاميتها إلى ثلاثين ألفاً.

دعا نادر شاه والي الموصل الباشا الجليلي إلى الاستسلام، وفي الرابع عشر من أيلول ١٧٤٣م وصل الشاه وجيشه إلى منطقة يارمجة، فعسكر فيها وأمر بنصب المعابر عبر دجلة أعلى وأسفل الموصل، وأرسل قسماً من جيشه ليعبر إلى الجانب الغربي من النهر كي يكملوا الالتفاف حول مدينة الموصل وفي نفس الوقت بعث رسولاً إلى الباشا الجليلي محذراً من بطشه.

فجاءه الجواب: " وما بيننا وبينك إلا السيف، وإذا أرسلت سفيراً أخر نرجعه إليك بلا رأس ". وكانت الموصل على أتم الاستعداد، فالخنادق مهيأة، وأصلحت الأجزاء المتصدعة من السور، وسدت الثلم والثغرات فيه، والمخازن مليئة بالحبوب استعداداً لحصار نادر شاه وهجومه على المدينة.

فتحت المدافع^(٣١) نيرانها على الموصل في الخامس والعشرين من أيلول ١٧٤٣م ولمدة ثمانية أيام وليال بدون توقف، وتصدع السور في عدة أماكن، ولكن المدافعين كانوا دائماً يتمكنون من إصلاحها قبل أن يجد الفرس سبيلاً إلى النفاذ خلالها.

٣١- عدد المدافع ١٦٠ مدفعاً و٢٣٠ مرمية هاون. للتفاصيل يراجع: سليمان الصانع، تاريخ الموصل، ج١، القاهرة ١٩٢٣.

وجرت عدة محاولات للقوات الفارسية لدخول المدينة ولكن شجاعة الوالي الجليلي وأهل الموصل حالت دون دخول القوات الفارسية المدينة وتكبدوا عدداً كبيراً من القتلى.

وبعد أن وجد نادر شاه ثبات أهل الموصل وصمودهم، وفقده للكثير من رجاله ونفاذ مؤنّه، ينس من أمل الاستيلاء على المدينة، وأدرك عدم جدوى القتال، فاضطر أن يطلب الصلح لاسيما وان أنباء مثيرة للقلق وافته من بلاده عن ظهور مدعين اثنين بالعرش ونشوب اضطرابات في إقليم شيروان. فعقد الصلح بين الطرفين، وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٧٤٣م (٤ رمضان ١١٥٦هـ) انسحب نادر شاه بجيشه الى كركوك بعد حصار للموصل دام أربعين يوماً تقريباً ثم توجه إلى بغداد تاركاً معظم جيشه في قره تبه وعند وصوله إليها عقد صلحاً مع واليها احمد باشا، الذي اشترط عليه العودة إلى بلاده.

ولما كانت هناك قوات فارسية تحاصر البصرة، فقد اصدر نادر شاه أوامره فوراً برفع الحصار عنها، بعد حصارهم لها في الثامن والعشرين من آب ١٧٤٣م، فانسحبت القوات الفارسية في السابع والعشرين من تشرين الثاني في العام نفسه.

غزوات كريم خان الزند وحصار البصرة

في الوقت الذي كانت فيه القوات الفارسية تخوض حرباً ضد العثمانيين في شمال بلاد فارس، لاستعادة المدن التي كانت تحت سيطرتهم، كان الأسطول الفارسي يقوم بمحاولة للاستيلاء على البصرة. إذ أمر نادر شاه قائد الأسطول لطيف خان بمهاجمة البصرة مستغلاً اضطراب الأوضاع فيها، بسبب اندلاع القتال بين العثمانيين والقبائل العربية.

وفي نيسان ١٧٥٣م استطاع لطيف خان الدخول إلى مياه شط العرب على رأس أسطول يتكون من ٥٣ سفينة كبيرة وعدد من السفن الصغيرة، مع قوة فارسية برية

مؤلفة من ثمانين ألف جندي انضمت إليه بالهجوم، غير إن قائد الأسطول لم ينتظر وصول القوة البرية فتقدم أعلى النهر. وعندئذ طلب متسلم البصرة من ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة مارتن فرنش (French) مساهمة السفينتين الحربيتين العائدتين للشركة اللتين كانتا راسيتين في الميناء، في صد الهجوم الفارسي غير إن ممثل الشركة رفض طلبه خوفاً من نقمة الفرس وغضبهم، وعندئذ اجبر المتسلم السفينتين أن تعمل معه ضد الأسطول الفارسي، ووضع مائتي جندي في كل منهما، وعند الجزء الضيق من شط العرب، أسفل البصرة بحوالي ١٥ ميلاً دار قتال لمدة ثلاثة أيام انتهى بانسحاب الأسطول الفارسي.

ومنذ أواخر عام ١٧٧٣م حدث أكثر من مرة أن أوشكت الحرب على الاندلاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية. ووصل هذا التدهور ذروته عندما شن كريم خان الزند هجومه الكبير على العراق في عام ١٧٧٥م، وذلك عقب الهزيمة التي منيت بها قواته في شمال العراق.

لقد كان لهزيمة الجيش الفارسي في شمال العراق أسوأ الأثر في نفس كريم خان الزند، الذي بادر على الفور باستعداداته الحربية على نطاق واسع. وكان من المتوقع أن ينتقم بعمل ضد بغداد أو البصرة، وكانت الثانية هي أرجح الاحتمالين، إذ إن كريم خان كان مغتاضاً من النجاح التجاري الذي أحرزته البصرة، إذ اتسعت عوائدها وتزايدت أهميتها بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية إليها، وتضاؤل الأهمية التجارية لميناء بوشهر الفارسي التجارية.

كان كريم خان يبحث عن ذريعة تكون بمثابة عود ثقاب يشعل بها نار الحرب ضد العثمانيين. فطالب برأس والي بغداد عمر باشا مدعياً أنه يسيء معاملته التجار الفرس ويسلب أموالهم، ويفرض ضرائب على الفرس الذين يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في العراق، كما اتهم والي بغداد بتقديم المساعدة إلى أمام عمان ضد الفرس. وتقدم كريم خان بالشكوى إلى الحكومة العثمانية حول ذلك، ولكنه لم يحصل على جواب على تلك الشكاوى.

وعندئذ أرسل كريم خان في أوائل عام ١٧٧٥م قوات كبيرة لمهاجمة العراق من عدة جهات، فقد تحركت قوات من شيراز لمهاجمة البصرة يقودها صادق خان، شقيق كريم خان الزند، تعدادها خمسون ألفاً، فضلاً عن أسطول يتكون من نحو ثلاثين سفينة صغيرة. وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات أخرى يقدر عددها بعشرين ألفاً قد عبرت حدود العراق الشمالية واحتلت عدة مواقع مهمة، وأخذت تتقدم باتجاه كركوك، فاجتاحت بعض قرراها.

ولكن ما أن بدأت القوات الفارسية بمحاصرة البصرة، حتى أصدرت القيادة الفارسية أوامرها إلى قواتها في جبهة العراق الشمالية بالانسحاب إلى داخل الحدود الفارسية. وكان الغرض من هذه الخطة الفارسية هو جعل العراق يحارب على عدة جهات مما يضعف قابلياته على التحرك والدفاع، والتأثير على جبهته الداخلية، وعندئذ تسهل مهمة القوات التي يقودها صادق خان لاحتلال البصرة. وكان هذا هو هدف كريم خان الزند من شن هجومه على العراق.

لقد أثارت القوات الفارسية الذعر في العراق، وأصبح الموقف العسكري بالغ الخطورة، لذا عرض الأمر على الباب العالي وطلب المساعدة العاجلة. وأرسلت الحكومة العثمانية مبعوثاً ليقابل كريم خان الزند ويتباحث معه لإنهاء الحرب، غير إن المباحثات لم تسفر عن أية نتيجة. إذ رفض كريم خان سحب قواته من الأراضي العراقية وبالتحديد من البصرة.

ولمنع الحرب قررت الحكومة العثمانية عزل باشا بغداد إرضاءً لكريم خان، ولكن الحقيقة إن الدولة العثمانية لم تكن ترغب في إعلان الحرب على الدولة الفارسية بسبب ما تواجهه من مشاكل إذ خرجت من حربها الخاسرة مع روسيا والتي انتهت بتوقيع معاهدة كوجك كنارجي في ٢١ تموز ١٧٧٤م، والتي تعد البداية لضعف الدولة العثمانية.

الحصار الفارسي للبصرة (٧ نيسان ١٧٧٥-١٥ نيسان ١٧٧٦) م

في السادس من نيسان اقتربت القوات الفارسية من مدينة البصرة وعسكرت بالقرب من المعقل على بعد خمسة أميال من البصرة. ووصلت في اليوم التالي مؤخرة القوات الفارسية، وأخذت مواقعها قرب تلك الطلائع، وشرعت في محاصرة وتضييق الخناق عليها.

وفي الأيام الأولى من الحصار لمدينة البصرة حصلت محاولات للقوات الفارسية باختراق أسوار المدينة، ولكن لم تكن في صالح الفرس. وعند انسحاب السفن البريطانية، التي كانت تقدم العون لأهالي البصرة، تعرضت المدينة للخطر الفارسي ومن ثم استيلاء الفرس عليها. وفي ذلك أشار احد المؤرخين يقول "وهكذا ترك أهل البصرة وحدهم، وتخلي عنهم هؤلاء الذين كان من واجبهم ومن مصلحتهم ان يدافعوا عنهم، ولو فعلوا هذا واستمروا في الوقوف معهم، لما استطاعت كل جيوش بلاد فارس ان تخلي المدينة (البصرة) وتحتلها".

كان استمرار حصار القوات الفارسية قد أرهق أهالي البصرة، ونفذت الذخائر والمؤن، ونفذت الحيوية داخل المدينة المحاصرة، وبدا لهم إن المقاومة أصبحت من غير جدوى، وإنها مؤدية لهلاك المنات من نفوس الجائعين، لاسيما بعد ان ينسوا تماما من وصول أية إمدادات لهم من بغداد أو اسطنبول. وعندئذ تداول متسلم البصرة مع أعيان المدينة ووجهائها بشأن ماجاء بكتاب والي بغداد، يتعذر فيه إرسال الإمدادات، فقرروا الاستسلام على أن يتعهد القائد الفارسي صادق خان بعدم التعرض للسكان، وقد أوفد إلى مخيم الخان من يعلمه بذلك.

وفي السادس عشر من نيسان ١٧٧٦م تم استيلاء الفرس على البصرة، بعد حصار دام أكثر من عام. فدخلت القوات الفارسية المدينة، ولم يحترم الفرس تعهدهم. فأدوا السكان واستباحوا الحرمات، واسروا المتسلم ورجال حكومته وأرسلوا إلى شيراز. وسيطر الجنود الفرس على بيوت سكان البصرة.

وكان سقوط البصرة في أيدي الفرس صدى قوياً في اسطنبول، وقرر المجلس العام للدولة إعلان الحرب على بلاد فارس، لكن إعلان الحرب لم يكن له أي تأثير على الموقف، فالدولة العثمانية كانت تواجه مشاكل خطيرة وعديدة في أوروبا، فضلاً عن اضطراب الأوضاع في العراق، ذلك الاضطراب الذي كان سبباً مهماً في بقاء البصرة بأيدي الفرس زهاء ثلاثة أعوام (١٧٧٦-١٧٧٩) م.

ولم تنسحب القوات الفارسية من البصرة إلا بعد تكبدها هزيمة قاسية أمام قوات المنتفق^(٣٢) (عشائر الناصرية) في الأعوام ١٧٧٧م و ١٧٧٨م عند منطقتي (الفضيلة) غرب نهر الفرات و(أبي حلانة) على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً من البصرة. وقد أضع القائد الفارسي حياته وجيشه باجمعه تقريباً في الموقعة الأخيرة. وكان لإبادة الجيش الفارسي في هذه الموقعة أثرها الكبير على الأخوين كريم خان الزند وصادق خان الزند. وفي الثاني من آذار ١٧٧٩م توفي الأول، فسادت الفوضى بلاد فارس، ونشبت حرب أهلية فيها الأمر الذي اضطّر صادق خان إلى سحب جميع قواته من البصرة والتخلي عنها في التاسع عشر من آذار من العام نفسه، وفي اليوم التالي غادرت سفن الأسطول الفارسي ميناء البصرة عائدة إلى موائلها. وبذلك انتهى الاحتلال الفارسي للبصرة، الذي كان مهيناً للعثمانيين، واستعادت الدولة العثمانية بدون بذل أي مجهود واحدة من أكثر ولاياتها أهمية.^(٣٣)

٣٢- عن المنتفق يراجع: سليمان فائق، تاريخ المنتفق، بغداد ١٩٦١م، ترجمة محمد فلوجي.
٣٣- للتفاصيل عن حصار البصرة يراجع، صالح محمد العابد، حصار البصرة (١٧٧٥-١٧٧٦) م، مجلة المورد.

الفصل الثالث

الاستعمار الأوربي للوطن العربي

- الحملة الفرنسية على مصر.
- الاحتلال الفرنسي للجزائر.
- الحماية الفرنسية والاسبانية للمغرب.
- الاحتلال الفرنسي لتونس.
- الاحتلال البريطاني لمصر و عدن.
- الاحتلال الايطالي لليبيا.

الحملة الفرنسية على مصر

كان تفاقم الصراع الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا احد ابرز الأسباب في الغزو الفرنسي لمصر، ولقد ازداد الموقع السوقي لمصر في القرن الثامن عشر في قيام حكومة الإدارة في فرنسا في الإعداد لحملة للسيطرة على تلك المنطقة واتخاذها مستقبلاً قاعدة للتوسع في الوطن العربي ولضرب المصالح البريطانية في البحار الشرقية والهند. فضلاً عن الموارد الاقتصادية التي تتمتع فيها مصر وإمكانية استثمار تلك الموارد، وان طريق مصر سيزهر التجارة الفرنسية واختراق نهر النيل نحو أعماق أفريقيا، فضلاً عن مركزيتها تجاه آسيا الغربية وشمال إفريقيا وكلها ستكون أسواق رانجة لمستقبل الاقتصاديات الفرنسية.

درس القادة الفرنسيون استعدادهم للحملة وما يمكن أن تتخذه بريطانيا، وهي تمتلك أكبر أسطول بحري وتجاري، ماهو موقف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر. وما يمكن أن يولده السيطرة على مصر من غضب الحكومة العثمانية التي كانت ترتبط بعلاقات جيدة معها.

وأخيراً قررت حكومة الإدارة في فرنسا تكليف نابليون بونابرت بقيادة الحملة لغزو واحتلال مصر، وأصدرت بياناً ذكر فيه أسباب الغزو، ذلك بان حكومة الإدارة وجدت أن حكام المماليك في مصر قد اتصلوا بالبريطانيين ولهم صلات وثيقة معهم، وإنهم يمارسون الأعمال العدائية والمظالم ضد الفرنسيين، وان الحكام المماليك يضطهدونهم، وعليه كلف الجنرال نابليون لقيادة حملة عسكرية كبيرة على مصر، وطرد البريطانيين من بلاد الشرق والقضاء على مراكزهم التجارية، وعهدت إليه مهمة حفر قناة السويس من خلال البرزخ الموصل بين البحرين المتوسط والأحمر، وضمان حرية الملاحة الفرنسية في البحرين.

أبحرت الحملة الفرنسية من ميناء طولون في ١٩ أيار ١٧٩٨م وهي مؤلفة من ٣٦٠٠٠ مقاتل مع عدتهم من الأسلحة والمؤن، ورافقها ١٤٦ رجلاً من العلماء والمستشرقين والأطباء والرسامين برفقة أدواتهم وكتبهم وأجهزتهم، بغرض تقديم صورة مفصلة عن مصر وتوابعها.

استولت القوات الفرنسية على جزيرة مالطة في ٩ حزيران ١٧٩٨م، واتخذها نابليون قاعدة عسكرية بين الطرفين، أما موقف الحكومة البريطانية فقد أوعزت إلى قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط الأدميرال نلسون Nilson بالبحث عن الحملة الفرنسية وتعقب أسطولها، في حين إن أهل الإسكندرية اخذوا يعملون على تحصين قلاعهم، للقتال حماية لمدنهم من الغزو الفرنسي المحتمل، وأرسل حاكم الإسكندرية يطلب النجدة من مماليك القاهرة الذين لم يأخذوا الأمر على مأخذ الجد.

نزلت قطعات الفرنسيين قرب مدينة الإسكندرية في الأول من تموز عام ١٧٩٨م، وحصلت مواجهة بين تلك القطعات وأهالي الإسكندرية وتمكن الجيش الفرنسي من دخول المدينة والانتشار فيها. واندفع مباشرة نحو القاهرة وصادف الجيش الفرنسي خلال تقدمه مشكلات عديدة أبرزها قلة الغذاء والماء والحر الشديد، وقرب أهرامات الجيزة وقعت معركة إمبابة أو الأهرام بين الجيش الفرنسي وجيش المماليك انتهت بهزيمة المماليك واستسلمت القاهرة التي دخلها الفرنسيون في ٢١ تموز من العام نفسه، وانتشر الجنود الفرنسيون يوزعون منشور نابليون باللغة العربية الذي كتبه بعض المستشرقين الذين رافقوا الحملة الفرنسية، وكان أهم ما ورد فيه ضرورة تعاون المصريين بعد إنقاذهم من حكم المماليك. ثم هدد نابليون من يتفق مع المماليك ضد فرنسا بالإعدام وحرقت القرى. وشرع نابليون أولاً بتنظيم الإدارة المصرية وبإشراف فرنسي.

أما موقف الشعب المصري فكان رافضاً للاحتلال وانتشرت المقاومة الشعبية بين صفوفهم ضد الفرنسيين في حين إن الأسطول البريطاني تمكن بعد عودته إلى السواحل المصرية من تدمير الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في الأول من أب ١٧٩٨م، وكان لتلك الموقعة تأثير نفسي بالغ على الفرنسيين، إذ انقطعت الاتصالات بين فرنسا ونابليون في مصر، فاضطر الاعتماد على مصر في كل ما يحتاج إليه جيشه من ذخيرة وغذاء. ولقد وضعت معركة أبي قير حداً للغزو ولتردد الباب العالي وفي أيلول ١٧٩٨م قرر السلطان العثماني إعلان الحرب على فرنسا وتحالفت مع روسيا عدوتها القديمة ضد فرنسا صديقتها القديمة، كما عقدت معاهدة تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا في أوائل عام ١٧٩٩م. كل ذلك شجع الشعب المصري لإعلان ثورته ضد المحتلين الفرنسيين، وقد كان إعلان السلطان العثماني الحرب على فرنسا وتذمر المصريين من الإجراءات الاقتصادية والضرائب ومصادرة أملاكهم ودور الخطباء والعلماء والمشايخ كل هذه أدت إلى ثورة المصريين ومهاجمة القوات الفرنسية في الشوارع وعند مراكز تجمعهم.

سارع نابليون إلى قمع الثورة بإطلاق جنوده الرصاص وضرب الجامع الأزهر، مقر قادة الثورة، بالمدافع وسقط العشرات من الشهداء، وأحرقت عدة قرى فقدم إليه المشايخ يطلبون منه وقف القتال ولقد أثمرت الثورة نتائج بالغة الأهمية، منها تغيير بونابرت سياسة الاضطهاد والقتل واستخدام القوة ضد المصريين، واستخدام سياسة التودد والمجاملة.

وقامت الحكومة العثمانية بإرسال حملة نحو مصر عن طريق سوريا وذلك لضرب القوات الفرنسية، وما أن علم نابليون بذلك حتى قرر تجهيز حملة برية في شباط ١٧٩٩م بهدف غزو سوريا والسيطرة على موانئها، لإيقاف تقدم القوات العثمانية من جهة ومنع إمدادات الأسطول البريطاني للعثمانيين من جهة أخرى. واحتلت القوات الفرنسية مدن العريش والرملة وغزة ويافا، وفي شهر آذار ١٧٩٩م ضرب نابليون وجيشه حصاره حول مدينة عكا ودام الحصار ثلاثة أشهر، استبسل أهلها بالدفاع عن

المدينة تحت قيادة زعيمها احمد باشا الجزائر، فاضطر نابليون الانسحاب والعودة إلى مصر ليوكل الجنرال كليبر أمور قيادة الحملة في مصر ويعود هو إلى فرنسا في ٢٢ آب ١٧٩٩م فواجه الأخير عام ١٧٩٩م ثورة عارمة أخرى في القاهرة سميت ((ثورة القاهرة الثانية)) واجهها كليبر بقوة وقسوة، وقد طوق القاهرة وقصفها بالمدفعية وأضرم النار في الأحياء المصرية الثائرة فذهب العشرات من الناس ضحايا تحت الأنقاض.

كانت الثورة بمثابة إنذار مصري للفرنسيين بالرحيل، وهكذا شعر كليبر بعدم القدرة على البقاء في مصر، فأرسل إلى العثمانيين يطلب فض حالة النزاع القائم بين الدولتين، وبدأت المفاوضات الفرنسية – العثمانية التي انتهت بمعاهدة العريش في ٢٨ كانون الثاني ١٨٠٠م والتي كان من أبرز بنودها : جلاء الفرنسيين عن مصر بصورة كاملة والرحيل دون قيد أو شرط، اعترضت الحكومة البريطانية وطالبت أن يُسلم الفرنسيين اسرى حرب، فرفض الفرنسيون ذلك، وفي ٢٠ آذار ١٨٠٠م تمكن كليبر من إلحاق هزيمة بالقوات العثمانية في معركة هليوبوليس قرب القاهرة، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المعركة ثار سكان القاهرة مجدداً وأبادوا الحامية الفرنسية الصغيرة التي كانت باقية في المدينة ولم يستطع الفرنسيون القضاء على الثورة إلا في ١٥ نيسان من العام نفسه عندما دكوا بولاق إحدى ضواحي القاهرة بالمدفعية ودمروا ما يقارب من ٤٠٠ بيت، وبعدها فرض كليبر غرامة حربية باهضة على سكان القاهرة.

وفي ١٤ حزيران ١٨٠٠م اغتيل كليبر على يد سليمان الحلبي فأصبح مينو محله ، ورداً على ذلك نظم الجيش الفرنسي مذبحه في العاصمة. وفي آذار ١٨٠١م انزل البريطانيون في الأراضي المصرية عشرين ألف مقاتل واحتلوا أبا قير، وسحقوا القوات الفرنسية بالقرب من الرحمانية، وحاصروا ما تبقى من القوات الفرنسية في الإسكندرية والقاهرة. وفي حزيران استسلمت القاهرة إلى البريطانيين ثم الإسكندرية في آب ١٨٠٢م. وبعد تغير الموقف الأوربي اشترك الفرنسيون في المفاوضات مع البريطانيين وتم الاتفاق على الجلاء في ٩ تشرين الأول عام ١٨٠١م وسعى السلطان

سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) م إلى عقد اتفاقية جديدة مع فرنسا والتي وقعت في حزيران ١٨٠٢ لكي تنهي حالة الحرب بين الطرفين.

نتائج الحملة الفرنسية على مصر

كان من ابرز نتائج الحملة على مصر ذلك التأثير البالغ الذي أصاب مصر لكي تبدأ حياتها النهضوية الحديثة في قلب الوطن العربي وتأثر بقية الأقاليم العربية بها، وعلى الرغم من فشل الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام وعدم تحقيقها أهدافها السوقية العسكرية والسياسية إلا أن الحملة حققت أهدافاً أخرى كان أبرزها:-

١. كانت الحملة الفرنسية بمثابة اليقظة والانتباه للشعب المصري بعد حياة السبات على مدة الحكم المملوكي والعثماني.
٢. أثرت الحملة الفرنسية في تنبيه الشعور القومي العربي مقارنة بالشعوب والقوميات الأخرى، والتعاطف العربي مع مصر ونصرتها من قبل بلدان المغرب العربي وبلاد الشام والحجاز والعراق.
٣. أتاحت الحملة الفرنسية للمصريين ان يقفوا على ظواهر التفوق الأوربي الذي لم يألفوه في السابق.
٤. ولدت الحملة الفرنسية اتجاهاً في المجتمع المصري يرمي نحو التحديث بعد أن تزعزعت الأفكار والمفاهيم، فكانت للحملة تأثير بالغ في بناء مفاهيم جديدة في المجتمع المصري.

ابرز أعمال الحملة الفرنسية في مصر

أما ابرز الأعمال العلمية والخدمية لنابليون في حملته على مصر فيمكن حصرها بالجوانب المهمة التالية:-

- ١- تأسيس مجمع علمي في ٢٢ أب ١٧٩٨م، وكانت له أهدافه في تقدم العلوم والمعرفة والدراسة والبحوث الطبيعية والتاريخية الخاصة بمصر، ثم إبداء

الاستشارة للحكومة، وكان من ابرز منجزاته تأليف كتاب مهم جداً عنوانه ((وصف مصر)) باللغة الفرنسية "Discription De'l Egypt" والمتالف من عدة مجلدات.

٢- تأسيس مطبعة عربية وأخرى فرنسية، وهما أول مطبعتين أسستا في الوطن العربي أصدرتا جريدتين فرنسيتين الأولى للأخبار والثانية للعلوم.

٣- العثور على حجر الرشيد الذي نجح العالم الفرنسي ((شابليون)) في حل رموز الخط المصري القديم ((الهيروغليفي)) ومن خلاله كشف عن جوانب مهمة وواسعة من التاريخ المصري القديم.

٤- الاهتمام الكبير بالفنون والروايات التمثيلية من خلال تأسيس المسارح وإقامة دار الأوبرا في القاهرة.

٥- قرر نابليون تحقيق فكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر فاستنبطت دراسات عدة لذلك المشروع الكبير إلى المسيو ليبير الذي قال بان فتح القناة سيغرق مصر، ونشر المشروع في كتاب ((وصف مصر)) فاستفاد منه رجل الأعمال الفرنسي فرديناند دي ليسبس (F.De Lesseps).

٦- الاهتمام بالخدمات العامة كإنارة الشوارع وفتح المدارس والمستشفيات.^(٣٤)

الاحتلال الفرنسي للجزائر

كانت الجزائر تابعة للدولة العثمانية من الناحية الاسمية، وقد أخذت تعاني تدهوراً في أوضاعها الاقتصادية والإدارية، وكان لفرنسا أطماع في نيابة الجزائر.

أخذت فرنسا تخلق الأعداء والأسباب للسيطرة على الجزائر، وكانت حادثة "لطمة المروحة"^(٣٥) السبب المباشر، والعدو المنتظر للحكومة للفرنسية لإرسال جيش

٣٤- للتفاصيل عن الحملة الفرنسية يراجع، محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، احمد حافظ عوض، فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر، القاهرة ١٩٥٢، فلاديمير لوشكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو ١٩٧١، ص ٣٢-٥٧.

فرنسي لاحتلال الجزائر. ولقد تأزمت العلاقات بين فرنسا وحكومة الداى فى الجزائر وتطور الأمر إلى ضرب حصار على مدينة الجزائر فى العام ١٨٢٧ تمهيداً لاحتلالها.

إما الأسباب الرئيسية للحصار الفرنسى على مدينة الجزائر فهى جعل الجزائر نقطة البداية لإحياء السياسة التوسعية وتأسيس إمبراطورية استعمارية فرنسية، وكذلك لإعادة الهيبة لحكومة آل بورون التى رجعت لحكم فرنسا بمساعدة الدول الأوربية الأخرى. وتعويض فرنسا عن فقدانها لمستعمراتها فى أمريكا الشمالية. وهناك سبب آخر مهم هو استمرار شعور التعصب الدينى للفرنسيين وبعث ذكريات عهد القراصنة والجهاد فى البحر، فضلاً على امتناع فرنسا عن دفع المبالغ المترتبة عليها جراء شراء صفقة حبوب من حكومة الجزائر فى عهد الثورة الفرنسية.

وبينما كانت الجزائر تتزعم دول المغرب العربى فى هذا الصراع العربى - الأوروبى فى شمال أفريقيا. وكانت فرنسا تشعر إنها "زعيمة الدول الكاثوليكية" لدول البحر المتوسط.

لقد تحمس أغلبية أعضاء مجلس الوزراء للحصار الفرنسى للجزائر. وفى أوائل نيسان ١٨٢٧م صدر الأمر إلى قاعدة طولون البحرية بإرسال أربع سفن حربية إلى الجزائر لمناقشة بعض الأمور الخلافية بين حكومة الداى فى الجزائر والحكومة الفرنسية، لم تصل إلى نتيجة ورفع القنصل الفرنسى دوفال (ديفال) تقرير إلى حكومته أثار نكرة الحكومة الفرنسية فقررت ضرب حصار واسع على ميناء الجزائر، وبدأ الحصار فعلاً فى حزيران ١٨٢٧م واستمر أكثر من سنتين، وفتحت المفاوضات مع داى الجزائر أكثر من مرة وقدمت الكثير من التنازلات للحكومة الفرنسية لرفع

٣٥ - حادثة لطفة المروحة فى صبيحة يوم حر شديد أهان بيبير دوفال القنصل الفرنسى فى الجزائر، أثناء الحديث، حاكم الجزائر (الداى) اهانة شديدة ف ضرب الداى الممتعض القنصل الفرنسى بمروحة كان يستخدمها لجلب الهواء وطرد الذباب فوقعت على وجه القنصل الفرنسى.
لونسكى، المصدر السابق، ص ٢٠٤

الحصار^(٣٦) ولكن الفرنسيين كانوا قرروا احتلال الجزائر. ورفضوا كل التنازلات الجزائرية.

ومنذ بداية الحصار تحمس دوفال لفكرة الاحتلال، مؤكداً سهولة تنفيذ النزول الى البر الجزائري، وأيده في ذلك قائد الحصار. ولقد أشار وزير البحرية الفرنسي في تقريره إلى حكومته بان احتلال الجزائر سيكون فرصة للتخلص من معاهدة فينا عام ١٨١٥م لأنها وضعت شروطاً قاسية على حكومة فرنسا بعد هزيمة نابليون في معركة واترلو، أما نفقات الحملة فيتوقع وزير الحربية إن خزينة الجزائر التي تضم نحو ١٨٠ مليون فرنك، ستغطي مصاريف الحملة، وعلاوة على ذلك ستحصل فرنسا على ثروة طبيعية في الجزائر. واعتبارها سوقاً لتصدير المنتجات الفرنسية.

وجرت محاولات في صيف ١٨٢٩م لحل الأزمة، وتوسط قنصل سردينيا لعقد هدنة مؤقتة تمهيداً للصالح، كما توسط قنصل بريطانيا ولكن دون نتيجة.

ولكن تولى دي بولينياك، الذي كان يمثل الرجعيين في فرنسا، رئاسة الحكومة جعلت الأمور تتعقد واخذ يتجه نحو تصعيد الأزمة واحتلال الجزائر.

وقدم والي مصر محمد علي باشا في أوائل آب ١٨٢٩م اقتراحاً لحل المشكلة وهو أن يقوم محمد علي باشا بخروج حملة برية من مصر يؤيدها الأسطول الفرنسي بحراً وتقديم مساعدات مالية. ويترتب على هذه الخطة انتقال كل ولايات طرابلس وتونس والجزائر إلى محمد علي، فيقيم فيها حكومة تحترم قوانين الملاحة، ويقوم محمد علي باشا بضم هذه الولايات باسم السلطان العثماني ويدفع لها جزيتهما، وفي مقابل مساعدات فرنسا يمنحها كل ما تطلب من امتيازات اقتصادية أو عسكرية في الجزائر رفضت حكومة فرنسا ذلك الاقتراح، كما إن بريطانيا كانت تعارض مد نفوذ محمد علي باشا في منطقة البحر المتوسط.

٣٦- طالب القائد الفرنسي وزير البحرية الجزائري تقديم الاعتذار بالصعود إلى احد سفن الحصار الفرنسي، وإصدار تعهد جزائري بالامتناع نهائياً عن القرصنة والاتاوات مع إعادة المسلوبات من السفن البايوت والاعتراف لفرنسا بحق الدولة الأولى بالرعاية بالجزائر، وتخلى الداي عماله من ديون. وأجاب الداي على هذه المطالب قائلاً بأنه " لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتي"
صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٨٢

وأخيراً اتخذ مجلس الوزراء الفرنسي في الثلاثين من كانون الثاني ١٨٣٠م قراراً بإرسال حملة برية لفرض شروط فرنسا على الجزائر إذا استمر حاكم الجزائر في موقفه المعارض وكان قد مضى على ضرب الحصار أكثر من سنتين ونصف السنة.

وفي ١٤ حزيران ١٨٣٠ نزل جيش فرنسي تعداده سبعة وثلاثون ألفاً على شاطئ خليج سيدي فرج غرب الجزائر بقيادة الجنرال الفرنسي دي بورمون وكانت المقاومة الجزائرية شديدة إلا إنها دون جدوى، وفي الرابع من تموز سقط حصن الإمبراطور وفي المساء وقع الداي على وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط.^(٣٧) وفي اليوم التالي دخلت القوات الفرنسية وفي ٢٣ تموز أقصي الداي عن البلاد وغادرت القوات الانكشارية إلى اسطنبول، فنهب الغزاة الفرنسيين خزينة الجزائر التي كانت تحتوي حوالي ٣٨ مليون فرنك و ١٢ مليون روبل فضي، كما استولوا على البيوت والأراضي والأموال العائدة إلى كثير من الجزائريين. وبذلك التزم الفرنسيون بالشروط الثلاثة ولكنهم لم يلتزموا بالشروط الرابع.

وفي عام ١٨٣٤م أعلن لويس فيليب ملك فرنسا (١٨٣٠-١٨٤٨)م وفقاً لتوصيات (لجنة شؤون أفريقيا) ضم الجزائر رسمياً إلى فرنسا. وتنظيم الإدارة المدنية، وعين حاكماً عسكرياً فرنسياً للجزائر.

وعن الاحتلال الفرنسي للجزائر وصف احد المؤرخين الفرنسيين ذلك الاحتلال " بأنه كان أول اسفين دق في ظهر الإسلام". وهكذا انتهى عهد النيابة العثمانية في الجزائر ليبدأ عهد الاحتلال الفرنسي في البلاد.

٣٧- وتضمنت الوثيقة أن تفتح المدينة أبوابها في اليوم التالي لقوات الفرنسية وتسلم إليهم القسبة وجميع الحصون، ويكون للداي حق اختيار المكان الذي يريد الإقامة فيه خارج الجزائر، مع ضمانات مماثلة لقوات الانكشارية، في حين تضمن الشرط الرابع تعهد فرنسا باحترام الشعائر الدينية للسكان، وان لا تتعرض لهم في أملاكهم وصناعاتهم أو تجاراتهم.
صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٧٩
وللتفاصيل عن الاحتلال الفرنسي للجزائر يراجع المصدر نفسه، ص ٧٣-٩٤

الحماية الفرنسية والاسبانية للمغرب^(٣٨)

احتفظت المغرب خلافاً للجزائر وتونس، باستقلالها الشكلي طيلة القرن التاسع عشر إلا إنها تحولت في غضون القرن نفسه إلى شبه مستعمرة للدول الأوروبية واعدت هذه الدول العدة للاستيلاء عليها مستغلة ضعفها وتأخرها. ولولا المنافسة بين الدول الأوروبية لما تأخرت مدة تحويل المغرب إلى مستعمرة كل تلك المدة.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر اضطرت المغرب إلى عقد اتفاقيات غير متكافئة معها. ففي عام ١٧٦٧م وقعت فرنسا وسليطان المغرب (مراكش) اتفاقية أصبحت بموجبها لـ ((دائرة المحاكم القنصلية)) صلاحية أن ينتفع الرعايا الفرنسيون المقيمون في المغرب دون أن تشمل الرعايا المغاربة المقيمين في فرنسا. واستناداً لهذه الاتفاقية توسعت امتيازات التجار والمقيمين الفرنسيين توسعاً كبيراً، فأصبحوا يتمتعون بالإعفاءات الضرائبية والحصانة القضائية، وكان باستطاعة أي فرنسي استئجار أي مغربي لاستخدامه وعندئذ يشمله نظام الامتيازات أيضاً.

ولما كانت هذه الإعفاءات الضرائبية والقضائية تستهوي المغاربة إلى أقصى حد ولا سيما الإقطاعيين والتجار المغاربة فأنهم كانوا يلجأون إلى الحماية الفرنسية للتخلص من الضرائب ومن الحكام المحليين ويعلنون بأنهم يستخدمون لدى القناصل والمقيمين الفرنسيين. وبهذا الأسلوب كونت فرنسا شبكة عملائها الواسعة في داخل المغرب من بين الإقطاعيين والتجار المحليين. هم عملاء لم يكونوا خاضعين لسليطان المغرب وافلتوا من سيادته، وعم هذا النظام جميع المغاربة الذين كانت لهم صلة بالتجار الفرنسيين.

إن نظام الامتيازات هذا شمل فيما بعد عدداً من الدول الأخرى علماً بأنه لم يكن سوى نسخة سيئة من نظام الامتيازات المعمول به في الدولة العثمانية. وعقدت اسبانيا مع المغرب في عام ١٧٦٧م أيضاً نفس الاتفاقية التي عقدتها فرنسا مع المغرب. وهكذا أصبحت هناك دولة أخرى تتمتع بنظام الامتيازات أيضاً.

٣٨- لونسكي، المصدر السابق، ص ٣٤٤-٣٦٣، صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٢٠٥-٢٤٩.

وعلى هذا النحو أصبحت تتمتع بالامتيازات في المغرب النمسا وسردينيا، والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وهولندا وبلجيكا. وفي عام ١٨٨٠م أصبحت الامتيازات موضوع معاهدة دولية خاصة، و انعقد المؤتمر الدولي في مدريد صيف عام ١٨٨٠م ونوقش في المؤتمر نظام الامتيازات والحماية الفردية في المغرب، ووفقاً لهذه المعاهدة صارت تتمتع بالامتيازات فضلاً إلى الدول المار ذكرها دول أخرى أسهمت في مؤتمر مدريد وهي ألمانيا والنرويج والدنمارك والبرتغال كما انضمت روسيا إلى معاهدة مدريد عام ١٨٨١م وحصلت على الامتيازات أيضاً. علاوة على نظام الامتيازات بذل الأوروبيون الجهود للحصول على حق شراء الأراضي وامتلاك العقارات في المغرب.

وبصورة خاصة ثبتت الاتفاقية البريطانية – المغربية لعام ١٨٥٦م التعريفات الكمركية في المغرب التي أعطيت للتجار البريطانيين وفيما بعد إلى تجار أوربيين آخرين إمكانية تصدير بضائعهم إلى المغرب بحرية تامة وذلك على أساس مبدأ الدولة الأكثر رعاية. وفي عام ١٨٩٠م عقدت ألمانيا أيضاً اتفاقية تجارية تعود عليها بفائدة أكبر، مما أدى إلى خفض التعريفات الكمركية السابقة تخفيضاً كبيراً.

وقام الأوروبيون باغتصاب الأراضي في المغرب، وقبيل مستهل القرن التاسع عشر كان لاسبانيا حصون في سبتة ومليلة وجزر الخزامة و بينيون، واستخدمت هذه الحصون كقواعد لتغلغل اسبانيا اقتصادياً وسياسياً في قلب المغرب وكرووس جسور لانطلاق الاسبانيين منها وشن عدد من الحملات على القبائل المغربية المجاورة. وبين عامي (١٨٥٩ – ١٨٦٠)م فتحت تطوان أثناء الحرب الاسبانية – المغربية. إلا إن البريطانيين تدخلوا خلال المفاوضات ولم يدعوا مجالاً للأسبان للتمتع بثمرة انتصارهم فأعيدت تطوان للمغرب.

كما استولت فرنسا في غضون القرن التاسع عشر على عدد من الواحات المغربية المتاخمة للجزائر، وفي مستهل القرن العشرين وضعت تحت مراقبتها المباشرة منطقة

مسماة ((منطقة الحدود)). وفي عام ١٩٠١م عقدت فرنسا اتفاقية حدود مع المغرب، ووفق هذه الاتفاقية تألفت لجنة فرنسية - مغربية عهد إليها بإنشاء مراكز فرنسية ومغربية على طول الحدود وإعطاء حرية اختيار الجنسية لسكان المناطق المتاخمة، ونتيجة للتدابير التي اتخذتها هذه اللجنة، وقعت في مدينة الجزائر في العشرين من نيسان ١٩٠٢م اتفاقية جديدة بصدد الحدود بين فرنسا والمغرب التزمت الحكومة المغربية بموجبها بـ ((توطيد سلطتها)) في المناطق المتاخمة وتعهدت فرنسا بإبداء المساعدة لها. إذ أنشأت فرنسا مراكز كمركية وعسكرية كما حصلت فرنسا على حق توقيف المجرمين ومحاكمتهم في الأراضي المغربية. وأنشأت كذلك هيئة مفوضي الحدود الفرنسيين وانتقلت إليهم السلطة المطلقة في جميع المناطق المغربية المتاخمة.

ونتيجة لهذه الاتفاقية، زحفت فرنسا بقواتها عام ١٩٠٢م إلى منطقة الحدود المغربية بقيادة الجنرال ليوتي وشرعت باحتلال البلاد تدريجياً. إلا إن فرنسا لم تستطع في غمرة ظروف الصراع الاستعماري الحاد، الاستيلاء على المغرب بسهولة. بل ترتب عليها الحصول على موافقة الدول الكبرى بهذا الخصوص فعقدت عدداً من الاتفاقيات السرية مع الدول الأوروبية واعدة إياها بتقديم مختلف أنواع التعويضات لها لقاء إطلاق يد فرنسا في المغرب.

وعقدت أول الاتفاقيات مع إيطاليا عام ١٩٠٢م وبموجب هذه الاتفاقية تعهدت فرنسا بمنح إيطاليا ولاية طرابلس الغرب (ليبيا) التي كانت تابعة للدولة العثمانية، ومنحت لإيطاليا حرية العمل في تلك الولاية مقابل اعتراف إيطاليا بالإجراءات التي تتخذها فرنسا في المغرب.

وفي ٨ نيسان ١٩٠٤م وقعت اتفاقية مشابهة لسابقتها بين فرنسا وبريطانيا عرفت ((الاتفاق الودي)) تعهدت فيها فرنسا بمصالح بريطانيا في مصر، مقابل اعتراف بريطانيا بمصالح فرنسا في المغرب. وهكذا عقدت صفقة نموذجية للعصر الاستعماري على حساب الشعوب المستضعفة.

وكانت النقطة الأساسية في الاتفاقية البريطانية - الفرنسية هي تجزئة المغرب إلى مناطق نفوذ وضعت حدودها في الجزء السري من الاتفاقية. فغدا شمال المغرب منطقة نفوذ اسباني، ووضعت طنجة تحت الإشراف الدولي مع تعهد الدولتين بعدم إقامة أي تحصينات في هذه المنطقة.

كان إصرار بريطانيا على تجزئة المغرب وفصل القسم الشمالي من البلاد وتحويلها إلى منطقة اسبانية، حفز فرنسا على إجراء مفاوضات مع اسبانيا. وفي تشرين الأول ١٩٠٤م وقعت فرنسا في باريس اتفاقية مع اسبانيا كانت تحتوي على جزأين علني وسري، وفي البيان العلني الذي نشر في الصحف، أعلنت فرنسا واسبانيا بأنهما تدافعان عن حرمة كامل أراضي المملكة المغربية تحت سيادة السلطان، وكان هذا نفاق صرف، لأن هذه المملكة جزئت في القسم السري من الاتفاقية إلى منطقتي نفوذ: الأولى فرنسية والثانية اسبانية.

شرعت فرنسا للسيطرة على الأمور في المغرب، ففي حزيران ١٩٠٤م منحت البنوك الفرنسية عبد العزيز سلطان المغرب قرضاً جائراً، وقد أنفقه السلطان على ملذاته والمظاهر المدنية الأخرى حتى تورط السلطان في الديون الخارجية، وقدمت له فرنسا قرضاً تبلغ قيمته ٦٢.٥ مليون فرنك وللإشراف على هذا الدين لحكومة المغرب كونت ((إدارة خاصة بالدين)) كما جاءت إلى المغرب مستهل عام ١٩٠٥م لجنة فرنسية عهد إليها بإجراء مفاوضات حول إجراء ما يسمى بالإصلاحات في الإدارة والمالية وجهاز الشرطة والاقتصاد في المغرب.^(٣٩) ولكنها بالحقيقة فإن تنفيذها يعني تحويل المغرب إلى شيء أشبه بمحمية فرنسية. إذ تنص المواد على أن تشرف فرنسا على كل المؤسسات المغربية.

كاد السلطان عبد العزيز يوافق على ذلك "البرنامج الإصلاحي" لولا تدخل ألمانيا في شؤون المغرب. إذ إن قيصر ألمانيا غليوم الثاني دخل طنجة في ٣١ آذار ١٩٠٥م وذكر

٣٩ - للتفصيل عن البرنامج الإصلاحي المزعوم يراجع: لوتسكي، المصدر السابق، ص ٣٥١-٣٥٢

في كلمته انه سيدافع عن سيادة سلطان المغرب كما سيذود عن مصالح ألمانيا في المغرب.

وأخيراً رُفِضَ برنامج الإصلاح الذي تقدمت به فرنسا، واضطرت الأخيرة إلى التنازل، بسبب ظروفها العسكرية آنذاك، وإنها غير مستعدة للحرب ضد ألمانيا فضلاً عن إن حليفها روسيا كانت منشغلة في حروب بالشرق الأقصى. لاسيما حربها مع اليابان (١٩٠٤-١٩٠٥)م وتمت الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي جديد. وفعلاً عقد في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٦م مؤتمراً في الجزيرة الخضراء خاص بالقضية المغربية وشاركت بالمؤتمر فرنسا، ألمانيا، وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وإسبانيا وإمبراطورية النمسا والمجر وبلجيكا وهولندا والمغرب واستغرق المؤتمر نحو ثلاثة أشهر، وإن طول مدة انعقاده لدليل على الصراع الدبلوماسي المتفانم الذي احتدم وراءه، ولم يكن ميزان القوى في صالح ألمانيا، إذ إن كل الدول عدا إمبراطورية النمسا والمجر كانت في جانب فرنسا.

وأخيراً تبنى مؤتمر الجزيرة الخضراء برنامج الإصلاحات الفرنسية وفوض فرنسا انجاز هذا البرنامج. كما حصلت فرنسا على انتداب لإدارة الاقتصاد المغربي والدولة المغربية.^(٤٠)

شرعت فرنسا عقب مؤتمر الجزيرة الخضراء مباشرة باحتلال المناطق الرئيسية في المغرب. وفي نهاية عام ١٩٠٦م وجهت أسطولها إلى طنجة بذريعة حماية الأوربيين فيها، وكذلك بعثت إسبانيا بأسطولها إلى طنجة.

وفي آذار ١٩٠٧م اغتيل في المغرب طبيب فرنسي، وكعقاب على الاغتيال احتل الفرنسيون مدينة وجدة وشرقي المغرب برمته. وفي آب ١٩٠٧م دُبر استفزاز جديد إذ شرعت بالعمل شركة مراكش الفرنسية التي حصلت على امتياز لإنشاء ميناء في الدار البيضاء، وبدأت بشق سكة حديدية ضيقة عبر مقبرة إسلامية، مدنسة القبور بعملها

٤٠ - للتفصيل عن مؤتمر الجزيرة الخضراء يراجع: صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ٢٣١-٢٤٠. ولقد اصدر المؤتمر قراراته في الرابع من نيسان ١٩٠٦ وهي وثيقة مطولة وتتألف من ١٢٣ مادة وتعرف بميثاق الجزيرة.

هذا، وقتلوا بعض العمال، وبضمنهم ستة فرنسيين فاستغلت فرنسا هذا الحادث كذريعة لاحتلال الدار البيضاء وناحية الشاوية، واحتلت اسبانيا بدورها جزء من منطقة مليلة.

أثار الاحتلال الفرنسي موجة تدمر في عموم البلاد، كما اعتبرت القبائل المغربية السلطان عبد العزيز خائناً وسبباً لجميع المصائب التي حلت بالبلاد فأعلنت عن خلعه وتنصيب أخيه عبد الحفيظ سلطاناً على البلاد في عام ١٩٠٨م.

وفي أيلول ١٩٠٨م نشأ خلاف فرنسي - ألماني جديد، وبدأت مفاوضات بين الدولتين وفي ٩ شباط ١٩٠٩م وقعت برلين اتفاقية أكدت المبادئ الأربعة الواردة في اتفاقية الجزيرة الخضراء، واحتوت على صيغة جديدة. إذ اعترفت فرنسا بمصالح ألمانيا الاقتصادية في المغرب. واعترفت ألمانيا بمصالح فرنسا السياسية فيها.

بعد استلام عبد الحفيظ للسلطة في المغرب واجهت الدول الأوروبية قضية تجديد علاقاتها به. وشرع السلطان نفسه بإجراء مفاوضات معها طمعاً منه في إلغاء احتلال القوات الفرنسية لمنطقتي الدار البيضاء ووجدة. فوافقت الدول على الاعتراف به كسلطان وفق الشروط التالية:

- ١- يجب عليه دفع تعويضات إلى فرنسا واسبانيا.
- ٢- تحتفظ كل من فرنسا واسبانيا بجيشهما في الأجزاء المغربية المحتلة من قبلهما.
- ٣- يراعي السلطان عبد الحفيظ جميع التزامات عبد العزيز الدولية.

وافق السلطان عبد الحفيظ على هذه الشروط، وفي كانون الثاني ١٩٠٩م اعترفت الدول به سلطاناً. وفي عام ١٩١٠م ربطه الفرنسيون بقرض جديد بمقدار ١٠٠ مليون فرنك منح له وفق شروط قاسية جداً.

ولتسديد القروض وفوائدها اضطر عبد الحفيظ إلى فرض ضرائب جديدة على القبائل مما أدى إلى سخطها وتدمرها في كل مكان. وأصبحت تنظر إليه كشخص خائن يواصل فعلاً السياسة التي أنتجها عبد العزيز. وفي عام ١٩١١م قامت القبائل بانتفاضة واسعة

جديدة. واستخدمت هذه الانتفاضة كذريعة لاقتحام القوات الفرنسية أرجاء البلاد الداخلية. (٤١)

زحف الجيش الفرنسي إلى فاس عاصمة المغرب ومقر السلطان بحجة حماية السلطان والمقيمين الأوربيين. وكانت هذه الذريعة اختلاقاً صرفاً، واثراً ذلك احتل الفرنسيون مكناس، واحتل الأسبان العرائش والقصر الصغير. كما قرر الألمان التدخل بأنفسهم في شؤون المغرب وإن يستولوا على الصويرة وأغادير كرد فعل على احتلال فاس، واتجه الزورق المسلح الألماني إلى سواحل أفريقيا تحقيقاً لهذا الهدف فبلغ أغادير في أول تموز ١٩١١م، وأعلنت الحكومة الألمانية إن إرسال الزورق الحربي كان للدفاع عن حياة التجار الألمان وأموالهم. وسخط الرأي العام الألماني بسبب إقصاء ألمانيا عن الإسهام في حل القضية المغربية. وبسبب تدابير فرنسا وإسبانيا التي جعلت وثيقة مؤتمر الجزيرة الخضراء وهمية.

وأعلنت ألمانيا أنها سوف لن تسحب سفينتها من أغادير (٤٢) إلا عقب انسحاب القوات الفرنسية والإسبانية من المغرب، وعدم ممانعتها من إجراء مفاوضات جديدة.

وأثناء المفاوضات هدد كل طرف الآخر بالجوء إلى السلاح، وفي الختام اضطرت الدبلوماسية الألمانية إلى قبول حل وسط وعقدت في برلين في الرابع من تشرين الثاني ١٩١١م اتفاقية جديدة مع فرنسا، ووفقاً لهذه الاتفاقية. وافقت ألمانيا على توطيد الحماية الفرنسية على المغرب، وتعهدت فرنسا بمراعاة حرية التجارة ومساواة الدول اقتصادياً في المغرب وكذلك تنازلت فرنسا عن جزء من الكونغو تبلغ مساحته ٢٧٥ ألف كيلو متر مربع إلى ألمانيا. (٤٣)

أما روسيا فإنها أيدت حل الخلاف بصورة سلمية. وهكذا فإن اتفاقية برلين التي أبرمت تبدو وكأنها خاتمة لعدد من الاتفاقيات السالفة، السرية منها والعننية. وأطلقت

٤١ - لتفاصيل يراجع: جمال هاشم احمد الذويب، التطورات السياسية الداخلية في المغرب الأقصى ١٨٩٤-١٩١٢،

رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨٩

٤٢ - للتفاصيل عن أزمة أغادير عام ١٩١١م يراجع: لوتسكي، المصدر السابق، ص ٣٥٨-٣٦٣.

٣٤ - للتفاصيل عن المعاهدة يراجع: إحسان حقي، المغرب العربي، دار اليقظة العربية، و،ت. ص ١٤٧-١٤٩.

الاتفاقية الفرنسية-الألمانية لعام ١٩١١م يد فرنسا في المغرب. ووقع السلطان عبد الحفيظ في فاس في الثلاثين من آذار ١٩١٢م على اتفاقية الحماية التي أملاها عليه المبعوث الفرنسي رينو. ومرة أخرى عادت إلى فاس القوات الفرنسية، وقامت بقمع المقاومة الشعبية فيها. فتوطدت الحماية الفرنسية على المغرب، واحتفظ السلطان بالعرش والمظاهر الخارجية للسلطة، التي حرمت تماماً من محتواها الحقيقي، إذ انتقلت السلطة بأسرها إلى فرنسا. وحصلت فرنسا على حق (احتلال أراضي مراكش عسكرياً) وإقامة (أية إجراءات بوليسية) فيها. (٤٤)

وأصبح الوسيط الوحيد بين المغرب والدول الأجنبية المقيم العام الفرنسي، وهو المفوض الذي قلد سلطة مطلقة تامة في بلاد المغرب باسم الجمهورية الفرنسية وصارت تقدم إليه جميع مراسيم السلطان لإبداء رأيه فيها والمصادقة عليها.

وهكذا حرمت اتفاقية فاس عام ١٩١٢م المغرب لا من استغلاله فحسب، بل ومن وحدته أيضاً، وبموجبها وقعت بمديرد في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢م اتفاقية بين فرنسا واسبانيا، ثبتت حدود المنطقتين الشمالية والجنوبية الواقعتين تحت حماية اسبانيا.

وبعد تثبيت الحماية بدأت مفاوضات بين بريطانيا وفرنسا واسبانيا حول نظام طنجة، وأظهرت المفاوضات بين هذه الدول إلى درجة إنها لم تنته حتى قيام الحرب العالمية الأولى (٤٥).

الاحتلال الفرنسي لتونس ١٨٨١م

جعل استيلاء الفرنسيين على الجزائر عام ١٨٣٠م تقرير مصير تونس المقبل أمراً محتوماً في الواقع. وبالطبع جلبت تونس انتباه المستعمرين الفرنسيين الذين شرعوا في تكوين إمبراطورية استعمارية لهم في شمال أفريقيا. وذلك لان تونس تشغل موقعاً مهماً على البحر المتوسط.

٤٤ - لوتسكي، المصدر السابق، ص ٣٦٢.

٤٥ - ولم تختتم إلا عام ١٩٢٣م.

وقد برز الصراع الفرنسي - البريطاني للسيطرة على تونس، ولقد خاضت الدولتان صراعاً حاداً للسيطرة على السوق التونسية وللحصول على امتيازات في الأراضي والمناجم ولتشديد طرق المواصلات ووسائل الاتصال والموانئ وغير ذلك، وكذلك لبسط نفوذهم السياسي على باي تونس وجهاز دولته.

وكانت القروض المالية الأسلوب الذي اتبعته الحكومة الفرنسية لتعزيز نفوذها في تونس، ولقد حصلت حكومة فرنسا في عام ١٨٧١م على مرسوم أصدره الباي محمد صادق (١٨٥٩-١٨٨٢) م، منح المواطنين الفرنسيون بموجبه حق شراء الأراضي في تونس، ومنحت نفس الحقوق للرعايا الايطاليين والنمساويين والبروسيين.

هذا وقد حدد المبلغ الإجمالي التونسي بمقدار ١٢٥ مليون فرنك والفوائد ٥% وتساوي (٦,٢٥٠,٠٠٠) فرنك إضافة للدين وهذا المبلغ يساوي نصف خزينة تونس آنذاك. وبدا الصراع بين الدول الاستعمارية للسيطرة على تونس، ولاسيما بين بريطانيا وفرنسا وسرعان ما انضمت إليهما إيطاليا ونشطت في مزاحمتها.

وفي خضم ذلك الصراع استولى الفرنسيون على الأراضي التونسية وحصلوا على امتيازات لمد سكة حديد تمتد من مدينة تونس إلى تخوم الجزائر وإنشاء مرفأ في نفس المدينة، واستخراج الرصاص وغيرها من الامتيازات. وابتاعت شركة مرسيليا عقارات ضخمة تبلغ مساحتها نحو ٩٠٠ كيلو متر مربع وعزمت على تحويلها إلى قاعدة فرنسية داخل تونس. وطالب الرأسماليون الفرنسيون تحويل تونس كلياً من شبه مستعمرة إلى مستعمرة فرنسية.

ولقد أثيرت قضية محاولة ضم تونس إلى فرنسا في مؤتمر برلين الذي انعقد عام ١٨٧٨م، وقد وافقت فرنسا على الاعتراف باستيلاء بريطانيا على قبرص، والنمسا على البوسنة والهرسك، وكذلك بتوسع روسيا في البلقان شريطة أن تحصل هي على تعويض مناسب.

تحقق الاستيلاء الفرنسي المباشر على تونس بعد ثلاث سنوات على انعقاد مؤتمر برلين، وقد استغلت فرنسا كالعادة الاستفزاز الذي جرى في حادث الحدود الجزائرية – التونسية. وفي ١٢ نيسان عبر الجيش الفرنسي الحدود التونسية من الجزائر، وكان عدده ثلاثين ألف جندي. ثم انزل ثمانية آلاف جندي آخرين في بنزرت وزحفت القوات نحو العاصمة التونسية.

وفي ١٢ أيار ١٨٨١ م طوقت القوات الفرنسية قصر سعيد مقر باي تونس الواقع في باردو وهي إحدى ضواحي مدينة تونس، وأجبرت الباي على توقيع معاهدة باردو أو "قصر السعيد" وتضمنت معاهدة الحماية عشرة مواد أكدت مصالح فرنسا في تونس^(٤٦) ووافق الباي بموجبها على احتلال القوات الفرنسية لتونس بدعوى "إعادة النظام والأمن إلى حدودها وسواحلها"^(٤٧) وحصلت فرنسا على حق تنظيم شؤون البلاد المالية. وتعهدت فرنسا بتقديم المعونة إلى باي تونس في حالة حدوث أي خطر يهدده هو أو أسرته الحاكمة.

اعترفت جميع الدول باستيلاء فرنسا على تونس ما عدا الدولة العثمانية وإيطاليا فقد احتجتا على ذلك، ولكن دون جدوى، وفي الواقع كان الشعب التونسي الجهة الوحيدة التي قاومت المحتلين الفرنسيين مقاومة محلية. وكان يقودهم ممثلو الطرائق الدينية، التي خاضت النضال تحت شعارات الجهاد ضد المحتلين الأجانب.

وفي ١٥ تموز ١٨٨١ م احتلت القوات الفرنسية صفاقس، وفي تشرين الأول احتلوا القيروان، وفي ١٩ تشرين الثاني اخذوا قفصة. ولم يتمكن الفرنسيين من قمع الانتفاضة للشعب التونسي واحتلال البلاد إلا في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٨١ م.

وفي الثامن من حزيران ١٨٨٣ م عقدت في المرسى اتفاقية فرنسية – تونسية سلبت الباي حتى من استقلاله في الشؤون الداخلية، وقد عززت هذه الاتفاقية معاهدة باردو

٤٦ - للتفصيل عن معاهدة الحماية يراجع، صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩١.
٤٧ - لوتسكي، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

لعام ١٨٨١م. وحدد في المعاهدة مبلغ الدين الأساسي ١٢٥ مليون فرنك والدين الجاري بمقدار ١٧ مليون فرنك. واتخذت فرنسا على عاتقها الاهتمام بتلبية مطالب الدائنين والواقع إن هذه المعاهدة هو توسيع اختصاصات فرنسا في تونس.^(٤٨) وفي الثاني من تشرين الأول ١٨٨٤م حثت اللجنة المالية الدولية وانتقلت جميع شؤون تونس المالية إلى المقيم العام الفرنسي، وفي ٢٣ حزيران ١٨٨٥ قلد المقيم العام بـ " سلطة الجمهورية المطلقة التامة " ضمن الحدود التونسية. ووضعت تحت تصرفه قوى فرنسا البرية والبحرية المرابطة في تونس. وكذلك جميع الهيئات الإدارية التي تشرف سواء على السكان الأوربيين أو التونسيين المحليين.

ولقد أنيط بالمقيم العام الفرنسي سلطة مطلقة يتمتع بها، وبقي باي تونس متربعاً على عرشه إلا أنه لم يحكم. إذ لم يكن له الحق في نشر أي مرسوم أو تعميمه دون موافقة المقيم العام الفرنسي. كما وضعت جميع إيرادات الدولة تحت تصرف المقيم العام الفرنسي، وهو الذي يخصص للباي راتب سنوي.

وعلى غرار ما حصل في الجزائر، جرى نهب الأراضي في تونس على نطاق واسع وبوتائر أسرع، وعملت السلطات الاستعمارية كل ما في وسعها لتشجيع وتنظيم الاستيطان الفرنسي. واستحوذ الفرنسيون على معظم الأراضي بطريقة خاصة. وفي عام ١٨٩٢م باشرت حكومة الحماية بما يعرف بالاستعمار الرسمي الذي قد طبق في الجزائر أيضاً، ويمكن وصفه بإعادة توزيع ملكية الأراضي بصورة مزدوجة، إذ قامت السلطات الاستعمارية بادئ ذي بدء بمصادرة الأراضي من أصحابها العرب وحصرها في يدها وثم بيعها بأثمان بخسة للمستعمرين الفرنسيين، كما صدرت قوانين أخرى صودرت فيها الأراضي المشاعة بدعوى كونها "أراضي فائضة" وقد حولت أموالها إلى الصندوق الاستعماري. وبذلك نمت ملكية الأراضي الفرنسية في تونس من ١٠٧ آلاف هكتار عام ١٨٨١م إلى ٤٤٣ ألف هكتار عام ١٨٩٢م ثم ٨٨٢ ألف هكتار في

٤٨ - للتفاصيل عن معاهدة المرسى يراجع: صلاح العقاد، المصدر السابق، ص ١٩٤.

عام ١٩١٢م فضلاً عن امتلاك الايطاليين وغيرهم من الأوربيين ١٣٥ ألف هكتار من الأراضي عام ١٩١٢م.

وبعد الاستيلاء على تونس، حولت الاحتكارات الفرنسية البلاد إلى سوق لتصريف البضائع الفرنسية ومصدر إلى تزويدها بالخامات. وكذلك قام الألمان والايطاليون والبلجيكيون بتوظيف اموال كبيرة نسبياً. أما البرجوازية الوطنية فإنها لم تسهم إطلاقاً في استغلال ثروات البلاد المعدنية، إذ إنها أزيحت إلى الوراء لضعفها من الناحية المالية والتكتيكية.

وبالنظر إلى متطلبات الاستعمار وصناعة التعدين في تونس ازداد مد خطوط السكك الحديد. ففي مدة قصيرة أصبح طول خطوط السكك الحديدية ١٣٧٥ كيلو متر عام ١٩٠٩ بعد أن كانت ٢٢٤ كيلو متر عام ١٨٨١م.

أما سكان تونس الأصليون فقد كانوا محرومين من الحقوق كما واحتل الفرنسيون جميع المناصب الهامة في جهاز الدولة. وطغى في البلاد التعسف الاستعماري البيروقراطي والتعصب العنصري والاضطهاد القومي. وانتهكت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بفظاظة حقوق التونسيين السياسية والمدنية.

أثارت تلك الإجراءات الاستعمارية للاحتلال الفرنسي موجة استياء واسعة في تونس. وفي نهاية القرن التاسع عشر حدثت في تونس انتفاضات فلاحية ونشأت أولى المنظمات والحلقات التي وضعت هدفاً لها خوض النضال ضد نظام الحماية الفرنسي والعمل على البعث القومي في تونس. ففي عام ١٩٠٥م تالف الحزب الجمهوري الذي كان يضم البرجوازيين الصغار الفرنسيين والديمقراطيين والمثقفين القوميين التونسيين وسرعان ما انشق هذا الحزب إلى جماعتين احدهما جماعة الوطنيين العرب برئاسة عبد العزيز الثعالبي، التي انسحبت من الحزب الجمهوري وانضمت في عام ١٩٠٩م إلى حزب "تونس الفتاة" الذي ألفه علي باش حانبة وبشير صفر في عام ١٩٠٧م. و طرح حزب تونس الفتاة شعار "الأمة الجزائرية التونسية" وبذل الجهود لكي تنال

هذه الأمة استقلالها. مع التأكيد على الإصلاحات الدستورية الواسعة والى الاستقلال في آخر المطاف. وقامت مظاهرات ضد سلطات الاحتلال الفرنسي انتهت بإبعاد مؤسسي حزب تونس الفتاة إلى الخارج في آذار ١٩١٢م، وفي العام التالي عاد الثعالبي إلى تونس واستأنف نشاطه السياسي فيها، أما علي باش حانبه فنقل نشاطه إلى المهجر.^(٤٩) ، ولقد علق قادة الحزب أمالهم على التفاهم مع حكومة فرنسا والقيام ببعض التنازلات للحركة الوطنية التحررية، ولكن دون جدوى.

وفي ١٨ كانون الأول ١٩١٣م اصدر الصدر الأعظم وسفير فرنسا في اسطنبول اتفاقاً بنص بموجبه على إن التونسيين والمغاربة يتمتعون في الدولة العثمانية باعتبارهم محميين فرنسيين بنفس الامتيازات والحصانة التي يتمتع بها الجزائريون، ومعنى هذا إن التونسيين والمغاربة المقيمين في ولاية الدولة العثمانية لهم الخيار بالحصول على الجنسية الفرنسية أو العثمانية، وأخيراً فقد تخلت الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عن المطالبة بحقوقها على تونس بموجب معاهدة سيفر عام ١٩٢٠م.

الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م

حاولت بريطانيا غزو مصر عام ١٨٠٧م، كما عملت على تقليص دور مصر على عهد محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٩) م حتى نجحت في تقليص نفوذه بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م. وكانت تعمل سراً للاستفادة من الموقع السوقي لمصر لاسيما بعد أن أصبحت مركز اتصالات دولي كبير اثر فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م للملاحة البحرية ودخول تاريخ مصر مرحلة جديدة بعد فتح القناة.^(٥٠)

٤٩- وللتفاصيل يراجع: نقولا زيادة، تونس في عهد الحماية (١٨٨١-١٩٣٤) م، القاهرة ١٩٦٣؛ عبد الكريم غرايبه، دراسات في تاريخ أفريقيا العربية، دمشق ١٩٦٠؛ صلاح العقّاد، المصدر السابق، ص ١٦١-٢٠٤؛ لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٦٠، ص ٣٣٠-٣٤٣؛ عبد الرحمن تشابجي، المسألة التونسية والسياسة العثمانية (١٨٨١-١٩١٣)، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي، تونس ١٩٧٣.
٥٠- للتفاصيل يراجع: صبري كامل هادي التميمي، قناة السويس وأثارها السياسية والاقتصادية واجتماعية في تاريخ مصر الحديث ١٨٦٩-١٩٣٦، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية - جامعة ديالى ٢٠٠٥.

ولقد استفادت بريطانيا كثيراً من الظروف الاقتصادية التي كانت مصر تعيشها على عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) م إذ وقعت تحت طائلة القروض من البنوك الفرنسية والبريطانية.

وللظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت مصر تمر بها استطاعت بريطانيا شراء أسهم الحكومة المصرية في مشروع قناة السويس، فأجرت بريطانيا بذلك خطة بارعة لتغيير مجرى تاريخ مصر اقتصادياً، وسياسياً فلقد عجز الخديوي إسماعيل من دفع مستحقات الديون وفوائدها. فشكلت لجنة رقابة مالية على مصر تتألف من بريطانيين وفرنسيين، ثم اجبر بعدها الخديوي للتنازل عن عرشه لولده توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢) م والذي كان أكثر مرونة وتوازناً للتعامل مع المطالب البريطانية.

ونتيجة للظروف السيئة وازدياد نسبة الضرائب والتدخل الأجنبي شكل العسكريون المصريون تنظيمًا عسكرياً سرياً، واستطاع هذا التجمع الوطني أن ينظم حركة مسلحة في ١٨ شباط ١٨٧٩م، وكان على رأس الحركة احمد عرابي (١٨٣٩-١٩١١) م^(٥١)، وكانت ابرز مطالب الحركة تشكيل وزارة جديدة وانعقاد البرلمان وزيادة عدد أفراد الجيش، ووقف التدخلات الأجنبية في الشؤون المصرية.

استجاب الخديوي توفيق لهذه المطالب، وشكلت وزارة جديدة في نهاية عام ١٨٨١م برئاسة محمود سامي البارودي واختير احمد عرابي باشا وزيراً للحربية والبحرية فيها. وأعلنت الوزارة الوطنية دستوراً جديداً للبلاد ودعت إلى انتخابات جديدة.

كان لهذه التطورات تأثير كبير اقلق الحكومة البريطانية، كان نتيجتها أن قدمت بريطانيا مشتركة مع فرنسا إنذاراً إلى الحكومة المصرية تطالب بحل الوزارة ونفي احمد عرابي باشا. رفضت الوزارة الإنذار وتوالت إنذارات البريطانيين إلى الجيش المصري ثم قاموا بقصف الإسكندرية في ١١ تموز ١٨٨٢م ونزلت القوات البريطانية

٥١- للتفاصيل يراجع : عبد الرحمن الرافي، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي، القاهرة ١٩٣٧، محمود الخفيف ، احمد عرابي الزعيم المفترى عليه، بيروت ١٩٤٨.

على السواحل المصرية، و جرت معركة التل الكبير في ١٣ أيلول من العام نفسه انتهت بهزيمة الثوار، فاستسلم احمد عرابي وقدم لمحاكمة مع جماعته فحكم عليه بالإعدام ، ثم أبدلوا الحكم إلى النفي المؤبد من مصر.(٥٢)

عاد الخديوي توفيق إلى القاهرة بعد أن كان قد هرب إلى الإسكندرية قريباً من الأسطول البريطاني وفرضت بريطانيا سيطرتها الفعلية على مصر، وجعلتها إحدى محمياتها. فقامت بتسريح الجيش المصري، ونفي زعماء مصر، وتشكيل جيش جديد تالف من ستة آلاف جندي يشرف عليه ضباط بريطانيون. وكان اللورد كرومر (Cromer) المعتمد البريطاني (١٨٨٣-١٩٠٦) م أول حاكم معتمد تنصبه بريطانيا في مصر يساعده في عمله وزراء مصريون، ونصب إلى جانب كل منهم مستشار بريطاني.

لم تنته الحركة الوطنية في مصر بعد نفي احمد عرابي ورفاقه، فألف مصطفى كامل عام ١٩٠٧م الحزب الوطني وبدا يطالب بجلء البريطانيين عن مصر وتحقيق وحدة وادي النيل بين مصر والسودان، وإيجاد حكومة دستورية تكون مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب واحترام المعاهدات الدولية.

ثم تألفت أحزاب مصرية أخرى كانت في تكوينها برجوازية أيضاً، لم يكن لها تأثير واضح على فئات الشعب المصري. ولقد كان الانقلاب الدستوري العثماني عام ١٩٠٨م أثره الكبير في الحركة الوطنية المصرية. وعند قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م أعلنت الحماية البريطانية رسمياً على مصر في ١٨ كانون الأول ١٩١٤م وبعد انتهاء الحرب بدأت صفحة جديدة للحركة الوطنية في مصر.

٥٢- للتفاصيل يراجع: احمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢، القاهرة ١٩٦٦م.

الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩م

بدأ اهتمام البريطانيين بعدن منذ الاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨م فقد كان من نتائج الحملة الفرنسية تهديد خطوط المواصلات البريطانية باتجاه الشرق ولاسيما الهند. ولمواجهة ذلك أرسلت الحكومة البريطانية عام ١٧٩٩م قوة بحرية احتلت جزيرة بريم في مضيق باب المندب، وذلك لمنع أي اتصال من جانب الفرنسيين بالمحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر، وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر انسحبت القوات البريطانية من الجزيرة لكن البريطانيين عادوا ثانية لاحتلال عدن، واستغلوا حادثة غرق سفينة هندية ترفع العلم البريطاني وعلى مقربة من شواطئ عدن وذلك عام ١٨٣٧م فطالبت حكومة الهند البريطانية بالتعويض وشراء منطقة عدن، ولكن سلطان لحج وعدن وافق على التعويض ولكنه رفض بيع عدن إلى حكومة الهند البريطانية. فبدأت المعارك بين البريطانيين وقبائل عدن انتهت بسيطرة البريطانيين على عدن في ١٦ تشرين الثاني ١٨٣٩م حتى وصلت إلى توقيع معاهدة حماية أمنت النفوذ البريطاني في البحار الشرقية، وقد استمرت تلك السيطرة البريطانية حتى عام ١٩٤٧م^(٥٣).

الاحتلال الايطالي لليبيا عام ١٩١١م

تمكنت القوات العثمانية من السيطرة على السواحل الليبية عام ١٥٥١م وشكلت ولاية باسم طرابلس الغرب. واستمر الوجود العثماني حتى ظهور الأسرة القرمنلية التي حكمت البلاد من (١٧١١-١٨٣٥)م^(٥٤) ثم أعاد العثمانيون سيطرتهم المركزية على الولاية عام ١٨٣٥م ليبدأ العهد العثماني الثاني في حكم طرابلس الغرب.

٥٣- للتفاصيل يراجع: فاروق عثمان اباضة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨، القاهرة ١٩٧٦.

٥٤- للتفاصيل عن الأسرة القرمنلية يراجع: رودلفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، القاهرة ١٩٦١.

ولقد واجه العثمانيون مقاومة عنيفة من القبائل المحلية بسبب سياستهم الضريبية، وقادت هذه المقاومة الطريقة الدينية السنوسية نسبة إلى مؤسسها محمد السنوسي.

وفي نهاية القرن التاسع عشر برزت الأطماع الإيطالية للسيطرة على طرابلس الغرب، كما رأت فرنسا أنها أحق بالسيطرة على الولاية واستندت في ذلك إلى تونس كراس جسر، وقامت بضم الواحات الواقعة على حدود طرابلس الغرب إلى الأراضي التونسية بصورة تدريجية، أما إيطاليا فقد بذلت جهودها للحصول على حصة مناسبة في طرابلس الغرب، وكانت تعتبر نفسها مغبونة أثناء اقتسام أفريقيا .

وكانت إيطاليا تعد العدة منذ أواخر القرن التاسع عشر للسيطرة على طرابلس الغرب ففي عام ١٨٨٧م عقدت إيطاليا اتفاقية مع بريطانيا وإمبراطورية النمسا - المجر حول الوضع الراهن في البحر المتوسط. وكانت الاتفاقية موجهة ضد الأطماع الفرنسية في طرابلس الغرب والمغرب الأقصى، وقد رفضت هذه الدول جميع مطالب فرنسا في ليبيا والمغرب، ومن جهة أخرى وعدت إيطاليا بمساندة مطامع بريطانيا في مصر. كما حصلت إيطاليا على تأييد ألمانيا وإسبانيا في مطالبها في طرابلس الغرب.

وفي عام ١٩٠٠م عقدت إيطاليا اتفاقية مع فرنسا حول تحديد مناطق النفوذ في البحر المتوسط، وبموجبها تخلت فرنسا لصالح إيطاليا عن جميع مطامعها في طرابلس الغرب، ولقاء ذلك منحها إيطاليا حرية العمل في المغرب. كما حصلت إيطاليا على مصادقة دبلوماسية من روسيا القيصرية للاستيلاء على طرابلس الغرب.

وهكذا ضمنت إيطاليا ضم طرابلس الغرب عن طريق الاتفاقيات السرية وهي صفقات عقدت على حساب الشعب العربي. وفضلاً عن التهيؤ الدبلوماسي قامت إيطاليا باستعدادات أخرى داخل طرابلس الغرب. ففي عام ١٩٠١م زار الولاية وفد برلماني إيطالي وفتح أكبر البنوك الإيطالية فرعاً له في طرابلس الغرب، كما اشترى الإيطاليون الأراضي عن طريق وسطاء صوريين وانشأوا مشاريع زراعية، واحتكرت شركات البواخر الإيطالية الاتصال بين طرابلس الغرب وأوروبا، واعد المهندسون الإيطاليون

مشروع سكة حديد طبرق-الإسكندرية، وفتحت مدارس ايطالية في الولاية. وصار الجغرافيون الايطاليون يسمون طرابلس الغرب "بأرضهم الموعودة"^(٥٥)

أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٩ أيلول ١٩١١م تحت حجج واهية وكان عدد القوات العثمانية سبعة آلاف شخص، وحاصر الأسطول الايطالي السواحل الليبية، وقد بلغ عدد القوات الايطالية ٣٤ ألف مقاتل ثم وصل عددهم إلى ٥٥ ألف في عام ١٩١٢م.

وكان لدى فيلق الحملة الايطالية مدفعية خاصة بالجبال والقلاع، وتلغراف وسلاح الطيران. فقصفت مدفعية الأسطول الايطالي السواحل الليبية وأنزلت القوات الايطالية التي احتلت ولاية طرابلس الغرب في ٥ تشرين الأول ١٩١١م وبنغازي في ١٩ منه. ثم أعلنت الحكومة الايطالية عن ضم ولاية طرابلس الغرب في ٥ تشرين الثاني ١٩١١م. وعرفت هذه البلاد من ذلك الحين بليبيا.

ولقد أبدت القبائل العربية مقاومة عنيفة ضد الغزاة. ففي ٢٢ تشرين الأول ١٩١١م أباد العرب قسماً كبيراً من جنود الإنزال الايطالي على سواحل طرابلس الغرب. وفي غضون شتاء ١٩١١-١٩١٢م احتفى الايطاليون في المدن التي احتلوها. وفي صيف ١٩١٢م احتلوا بعض المراكز الساحلية أيضاً.

ولم تتمكن الدولة العثمانية من مواصلة الحرب ضد ايطاليا نظراً لبداية الحروب البلقانية (١٩١٢-١٩١٣) م ولهذا التجأت إلى عقد الصلح معها، وفي ١٥ تشرين الأول ١٩١٢م وقعت اتفاقية تمهيدية، وفي ١٨ منه أبرمت اتفاقية السلم النهائية في لوزان^(٥٦).

وعرفت بمعاهدة "أوشي" (Ouchy) التي اعترف بها الباب العالي بالاحتلال الايطالي لطرابلس الغرب وهي نهاية التاريخ العثماني بشمال أفريقيا ، أما فيما يخص

٥٥- لوتسكي، المصدر السابق، ص ٣٦٨.
٥٦- عبد الرحمن تشابجي ، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

الدول الأوروبية فقد اعترفت بالسيادة الإيطالية على ليبيا عقب انتهاء الحرب الإيطالية - العثمانية وعقد اتفاقية لوزان عام ١٩١٢م.

وبالرغم من اتفاقية الصلح استمرت العمليات الحربية ضد الليبيين واحتلوا عدداً آخر من المدن. وأعلن السنوسيون الجهاد المقدس ضد القوات الإيطالية. فاضطر الإيطاليون إلى التراجع عن أنحاء برقة الداخلية واكتفوا باحتلال المراكز الساحلية، ولكنهم احتلوا في آب ١٩١٣م سواحل سرت الواقعة إلى جنوب بنغازي. وفي عام ١٩١٤م كان الإيطاليون على وشك احتلال فزان، إلا أنهم ابعثوا عقب بداية الحرب العالمية الأولى عن جميع أنحاء البلاد وقبل بداية عام ١٩١٦م نجحوا بالاحتفاظ بمدينتين فقط هما طرابلس الغرب والخمس. وانتقل قسم ليبيا الشرقي برمته إلى سلطة السنوسيين.

وفي تشرين الثاني ١٩١٨م ، وعقب انتهاء العمليات الحربية في أوروبا، أنزلت إيطاليا إلى طرابلس جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف جندي، وبدأت مفاوضات مع رؤساء القبائل في غرب ليبيا، باذلة الجهود لدفعهم إلى الاستسلام. إلا أن المفاوضات لم تنجح. فاستأنفت إيطاليا العمليات الحربية في شباط ١٩١٩م. ولم يستطع الغزاة الإيطاليون تحطيم مقاومة القبائل العربية في ليبيا إلا بعد مرور ثلاثة عشر عاماً أخرى تميزت بمقاومة بأسلة وعنيدة وبطولة فائقة أبداهما الشعب الليبي.

الفصل الرابع

الحركات والثورات التحررية في الوطن العربي في القرن التاسع عشر

- الحركة المهدية في السودان.
- الحركة السنوسية في ليبيا.
- ثورة الأمير عبد القادر الجزائري.
- الثورة العرابية في مصر.

الحركة المهدية في السودان

أصبح السودان الشرقي تحت الحكم المصري أبان القرن التاسع عشر، فانعكست الظروف السياسية والاقتصادية التي عاشتها مصر على السودان انعكاساً مباشراً. ولقد كان السودان مرتعاً للبعثات الأوربية والمغامرين الجغرافيين الذين افتتحوا العهد الاستعماري للسودان الشرقي، وكان البريطانيون في مقدمتهم، ولقد ازداد نشاط البعثات التبشيرية البريطانية والفرنسية في عهد الجنرال غوردون (Gordon) الذي تولى حكم السودان عام ١٨٧٧م.

وفي عام ١٨٨١م نشبت الثورة العربية في مصر، وعلى أثرها قامت ثورة في السودان ضد الحكم البريطاني، وقاد هذه الثورة احد السودانين الذي أطلق على نفسه اسم " المهدي المنتظر " فمن هو هذا الرجل؟ وما هي حقيقة حركته؟ وما أثارها على تاريخ السودان؟.

ولد محمد احمد بن عبد الله عام ١٨٤٤^(٥٧) في جزيرة لبب إحدى جزر نهر النيل بالقرب من مدينة دنقلة، وكان والده نجاراً، ومارس إخوته الحرفة ذاتها، وتجول في طفولته بصحبة والده وإخوته في وادي النيل في طول البلاد وعرضها، فتعرف جيداً على حياة الناس ومعيشتهم .

وبعد وفاة والده، التحق بالطريقة الإسلامية السمائية في مدينة بربر في شمال السودان، ودرس هناك علوم الدين. ثم استقر في جزيرة "ابا" الواسعة، ودعا من هناك إلى الوقوف ضد سوء المعاملة التي يمارسها الجنود البريطانيون والعثمانيون والمصريون، وإلى إنقاذ البلاد من سطوتهم.

لقد تميز المهدي ببساطته وزهده وقدرته على الإقناع، فالتفت حوله الآلاف من الفلاحين والفقراء والبدو وال دراويش والعاطلين فاسماهم بـ "الأتصار" في حين ابتعد عنه الأثرياء والاقطاعيون والرؤساء الذين دعاهم إلى تقسيم الأموال والأراضي على

٥٧- يشير لوتسكي انه ولد عام ١٨٤٣م، ص ٢٩٩.

الفقراء البائسين، وإذا رفضوا فلتنتزع منهم بالقوة انتزاعاً، كما دعا إلى الثورة لإيقاف النهب الأوربي العنفي لموارد البلاد. والحد من تسلط الباشاوات. وقد جاء ذلك كله ضمن النهج الإصلاحى الذى رسمه "محمد المهدي".

وعليه فإن الحركة المهدية ذات النهج الإصلاحى قد نشأت أصلاً دعوة سياسية وطنية تقوم على مبدأ التحرر السياسى والاقتصادى لبناء مجتمع سودانى عادل.

وفى أب ١٨٨١م المصادف شهر رمضان دعا محمد احمد المهدي الشعب السودانى إلى الثورة، وكان الطرف ملائماً للثورة، إذ تطورت فى مصر أزمة سياسية، فنشأت فى السودان إمكانية للعمليات العسكرية ضد القوات الأجنبية.

انتقل محمد المهدي إلى إقليم كردفان إذ كان ينتظره الآلاف من المؤيدين والأنصار، وتحولت الجموع الغاضبة خلال أيام إلى قوات ثورية ضاربة، فأسس المهدي معسكراً فى جبال كردفان الجرداء. ونظم الجيش وجهزه بالأسلحة والمعدات، وبدأوا بالهجوم على المراكز الحكومية والحاميات العسكرية وعلى الموظفين من جباة الضرائب المتعسفين. فبدأت تترسخ يوماً بعد آخر عند السودانىين روح العزة بالسيادة الوطنية بعد افتقادها لسنين عديدة.

بدأ جيش المهدي بصد الحملات العسكرية المصرية - البريطانية فى أعوام ١٨٨١ و ١٨٨٢م وكانت تلك القوات تتعرض للإبادة شبه التامة، وسيطرت قوات المهدي على كامل إقليم كردفان فى عام ١٨٨٣م.

وفى مطلع عام ١٨٨٤م أصبحت كل بلاد السودان من جهتي النيل الغربية والشرقية بيد المهدي، ولم يبق بيد السلطات البريطانية - المصرية إلا مساحة ضيقة من وادي النيل. ولكن البريطانىين استطاعوا تدبير مناورة ناجحة بإعلان استقلال السودان عن مصر على يد الجنرال غوردون الذى نصب حاكماً على الخرطوم فى ١٨ شباط ١٨٨٤م ونصب المهدي سلطاناً على مديرية كردفان، واحتفظ لنفسه بمنصب حاكم عام، ثم ألغى الضرائب وأعلن العفو العام. ولكن المهديين اكتشفوا المناورة فردوا على

ذلك بحصار الخرطوم، فأرسلت قوات بريطانية لفك الحصار عن الجنرال غوردون لكنها لم تتمكن من الوصول إلى المدينة، وفي ٢٣ كانون الثاني ١٨٨٥م استسلم المحاصرون فاحتل الثوار مدينة الخرطوم وقتل غوردون أثناء عمليات الاقتحام. فأنفتح الطريق أمام الثوار للسيطرة على جميع أراضي شرق السودان. فأسست الدولة المهديّة على مدى أربعة أعوام ولم يتبق بيد البريطانيين إلا منطقة صغيرة في شمال دنقلا فضلا عن مديريةية خط الاستواء.

توفي محمد احمد بن عبد الله المهدي بعد فتح الخرطوم بمدة قليلة فانتقلت رئاسة الدولة المهديّة إلى عبد الله التعايشي اقرب مساعديه والذي لقب بالخليفة. وكانت الدولة، التي استمرت ثلاث عشرة سنة تتسم بطابع ديمقراطي وقد حاول العملاء داخل السودان شق الكيان الداخلي للدولة الفتية المستقلة وبدعم من البريطانيين ومؤيديهم.

بقيت الدولة في حالة دفاع عن النفس، فنظم الجيش وأصلحت السفن وظهرت الصناعة الحربية، وكانت الدولة المهديّة تتسم بالبساطة، وخفضت الضرائب عن أبناء الشعب. وتمتع الناس بالمساواة، وعوقب اللصوص والمجرمون، ومورست سياسة تقشفية مخلصّة من اجل إصلاح الحياة الاقتصادية، وكان الزهد والتقشف من سمات الضباط والقادة.

وكانت الدولة المهديّة مضطرة لمحاربة أعدائها، إذ استمر القتال ضد الجيش البريطاني - المصري في مناطق عدة من الجهة الشرقية للمدة من ١٨٨٥ - ١٨٨٩م، فضلا عن الصراع ضد سلطان دارفور من الجهة الغربية وضد إمبراطور الحبشة (أثيوبيا) وفي عام ١٨٩٦م كان الصراع ضد دول أوربا قد بلغ ذروته. وقد تعاونت بريطانيا وفرنسا لمهاجمة الدولة المهديّة، كما دخلت بلجيكا وإيطاليا للحصول على مناطق نفوذ في المنطقة.

لقد بدأت كل من قوات فرنسا وبريطانيا في عام ١٨٩٦م الهجوم على الدولة الفتية في السودان احدهما من الغرب والثانية من الشمال، وفي العاشر من تموز ١٨٩٨م اتجهت القوات الفرنسية بقيادة مارشان نحو فاشودة ورابط فيها، واقترب كيتشنر القائد

البريطاني بقواته في الثاني من أيلول من العام نفسه من عاصمة الدولة المهدية ام درمان، وجرت هناك معركة بين القوات البريطانية – الفرنسية من جهة والقوات المهدية من جهة أخرى، واستخدمت القوات المهاجمة الأسلحة الرشاشة. وتقدم المهديون في صفوف متماسكة مسلحين بالبنادق القديمة والسهام والخناجر، وقتل منهم أكثر من عشرين ألف شخص فأصيب جيش المهدي باندحار تام وتراجع ما تبقى منه إلى الجهة الغربية أي إلى كردفان. ولم يتم تعقب قوات المهدي المتقهقرة بل اتجه كتشنر نحو فاشودة في ١٩ أيلول ١٨٩٨م والتقى بالقوات الفرنسية فيها فادت هذه إلى أزمة فاشودة العالمية، ولكنها انحسرت على أساس توازن القوى، وبعد مفاوضات طويلة أمرت الحكومة الفرنسية مارشان في الرابع من تشرين الثاني بالتراجع من فاشودة. وبعد أشهر قليلة عقدت الاتفاقية البريطانية – الفرنسية حول توزيع مناطق النفوذ في أفريقيا.

أما الموقف المصري فقد عقدت في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩م في القاهرة معاهدة وقعها اللورد كرومر عن بريطانيا وبطرس غالي عن مصر على تأسيس الحكم الثنائي البريطاني – المصري في السودان. ووفقاً للمعاهدة يمثل الحاكم العام السلطة العليا في السودان وانحصرت في يده جميع السلطات . ومنذ عام ١٨٩٩م عرف السودان رسمياً بالسودان البريطاني – المصري، وأقيم فيه حكم ثنائي. وشرعت بريطانيا بتصفية أحر بقايا القوات المهدية التي كانت قد تراجعت إلى سهوب كردفان.

وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٨٩٩م وجه كيتشنر قواته إلى تلك المديرية ودمرت بقايا المهديين وقتل الخليفة عبد الله في المعركة. وفي ١٧ كانون الأول من العام نفسه تم الاستيلاء على عاصمة المهديين (الأبيض). وسحقت الثورة. رغم إن فصائل منفردة مهدية بقيت تواصل المقاومة لمدة من الزمن في مختلف أنحاء البلاد.

وعلى مدى ربع قرن ١٩٠٠ – ١٩٢٧م كان حكم البريطانيين للسودان حكماً صعباً نظراً للانتفاضات في أماكن متفرقة من البلاد.^(٥٨)

٥٨- للتفاصيل عن الحركة المهدية في السودان يراجع: لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٩٦-٣١٢.

الحركة السنوسية في ليبيا (٥٩)

ظهرت السنوسية حركة إصلاحية – دينية فعالة تدعو للعودة إلى صفاء الإسلام، وإحياء صالح الأعمال، وإلى الاعتماد على النفس، وابتعاد الإنسان عن الشوائب والابتذال، وجعله عضواً في مجتمع منتج، ويعتمد على قواه الذاتية.

ومؤسس هذه الحركة هو محمد بن علي السنوسي من أصل جزائري، ولد في عام ١٧٨٧م في قرية "الواسطة" قرب مدينة مستغانم الساحلية في إقليم وهران غرب الجزائر وكانت أسرته تحظى بسمعة علمية لائقة، يحترمها المجتمع الجزائري، وبدأ بالتعلم منذ صغره، ودرس في كبره العلوم الفقهية والشرعية والتفسير. وقد شعر بإحباط شديد عندما رأى الضعف الذي أحاط بالعثمانيين وعجزهم عن مواجهة الاستعمار الأوربي الذي بدأ يتغلغل في المغرب العربي. فبدأ يفكر في إيجاد أساليب لإيقاف حالة الانهيار الكبير الذي يتعرض له المغرب العربي والعالم الإسلامي.

تنقل بين مدن طرابلس الغرب وبنو غازي ثم وصل القاهرة عام ١٨٢٤م ودرس في الأزهر واتصل بعلماء مصر. وتجاوز معهم في وسائل الإصلاح، ثم رحل إلى الحجاز في العام التالي.

عاد إلى بلاده الجزائر بعد الاستيلاء الفرنسي عليها عام ١٨٣٠م، ولكنه لم يستقر فيها فهاجر إلى القاهرة، ثم إلى الحجاز ثانية وفيها أنشأ زاويته الأولى عام ١٨٤٠. رحل بعدها إلى طرابلس الغرب، ثم مراكش ليستقر في فاس ليمارس التدريس الديني، ولكن حكومة مراكش خشيت دعوته فضيقت عليه كثيراً، فغادر إلى طرابلس الغرب عام ١٨٤١م ومنها بدأ رفقة أصحابه يسهمون في مقاومة المحتلين الفرنسيين للمدة من ١٨٤٨ – ١٨٦١م.

سيار كوكب علي، تكوين العرب الحديث، دت؛ محمد فؤاد شكري، السودان والثورة المهدية، الخرطوم ١٩٧٨؛ جلال يحيى، الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية، القاهرة ١٩٥٩. ٥٩ - للتفصيل يراجع: احمد صادق الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، بيروت ١٩٧٦.

استقر السنوسي عند الساحل الليبي متخذاً من برقة نقطة التقاء لجولاته وحركاته بين المشرق والمغرب العربيين. ولكن سرعان ما سافر إلى الحجاز مرة أخرى ليقيم فيها ثمان سنوات. ولكي ينشر منهجه الإسلامي الإصلاحي هناك، ومؤسساً للزوايا^(١٠) في كل من المدينة والطائف وينبع وجدة ورباح ووادي فاطمة واصفان وبقي في الحجاز حتى عام ١٨٥٦م غادرها إلى الجبل الأخضر في ليبيا مؤسساً بعض الزوايا لكي تكون مراكز للعبادة والدراسة وممارسة بعض الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية.

كان قائد هذه الحركة السنوسية محمد بن علي السنوسي الكبير (١٧٨٧-١٨٥٩) م قد اختار واحة الجغبوب الليبية مركزاً لحركته ودعوته التنظيمية، وتقع الواحة في قلب جغرافي يتوسط طرابلس الغرب، وبرقة ومصر والسودان الغربي، فضلاً عن كونها ملتقى للقوافل والمارة في مختلف الاتجاهات.

بدا المركز على شكل مدرسة دينية مزودة بمئات الكتب، وقد كانت تلك المدرسة تضم كل سنة قرابة ثلاثمائة من طلبة العلم الذين يتحولون حال تخرجهم إلى دعاة للحركة ثم قادة لها.

وبعد انقضاء مدة زمنية، انتشرت الدعوة السنوسية في مساحة كبيرة تمتد على امتداد الشمال الأفريقي، وكان لها دور في نشر الدين الإسلامي في أعماق أفريقيا فوصلت تأثيراتها إلى النيجر، والكونغو، والكاميرون، وتشاد وغيرها. والتي تأثرت جميعها نتيجة انتشار الدعاة السنوسيين الذين وفدوا إليها بطريق التجارة أو على هيئة سواح. وقد خشيت الدول الاستعمارية منهم ومن تأثيراتهم، وكانوا يرتدون الملابس البيض المخططة بالسواد، وكانوا يتميزون بأخلاقهم العالية، وبدأوا يقاومون الغزاة،

٦٠ - الزاوية هي مكان شبه رسمي يرتبط براس التنظيم السنوسي من خلال قائد لها يدعى بـ "مقدم الزاوية" وهناك شيخ "الزاوية" يتولى شؤون التدريس والقضاء. وتتألف الزاوية من مسجد للصلاة ومدرسة للتعليم ومنزل للقائد والوكيل والشيخ، وفيها بيوتات للضيوف والزائرين والرحالة وعابري السبيل، وهناك مأوى مخصص للفقراء، ومخزن للمؤن، ومتجر، وفرن، ومطبخ، وسوق وإسطبل للخيل. ولكل زاوية ارض زراعية، وصهاريج لحفظ المياه، ويكون العمل جماعياً دون اجر، أما الإنتاج فيسوق وتنفق الأموال على الزاوية ومرافقها، غذاء وكساء وتعليماً. ويذهب ما تبقى من أموال إلى المركز. لقد انتشرت الزوايا فبلغ عددها ١٨٨ زاوية متوزعة في شبه الجزيرة العربية ومصر والسودان وأكثرها ٩٧ زاوية في ليبيا وأقلها اثنان في تونس. وانطلق الدعاة السنوسيون الى قلب أفريقيا ينشرون مبادئهم، ويدعون إلى قتال المستعمرين والحيولة دون سيطرته على البلاد.

لاسيما وانه اول من تنبه إلى فعاليتهم أعضاء الإرساليات التبشيرية، فبدأت تضغط على حكوماتها لإيقاف المد السنوسي ونشاطاته والتوسط لدى الدولة العثمانية.

أعقب السنوسي الكبير ولده الزعيم المهدي السنوسي (١٨٤٤-١٩٠٢) م والذي قاد الحركة في أصعب الظروف، ويعود إليه فضل تحويل الحركة من كونها حركة إسلامية مناهجية اجتماعية إلى حركة سياسية - عسكرية لمواجهة الغزاة الأجانب. ولقد حدثت صدامات واسعة بين السنوسيين والفرنسيين الذين احتلوا تونس عام ١٨٨١م وحققت الحركة خلالها نجاحات واضحة، ولكنها انتكست بمرارة عام ١٩٠٠م اثر هزيمة قاسية ومات بعد سنتين زعيم الحركة المهدي السنوسي، ولم تمر إلا سنوات قلائل حتى تعرضت طرابلس الغرب إلى الاحتلال الايطالي عام ١٩١١م فبدأت من جديد المقاومة السنوسية والنضال الليبي ضد المحتل الجديد الذي استخدم الأسلحة الفتاكة والمدفعية والطيران لأول مرة. وبدأت المدن الليبية تسقط الواحدة اثر الأخرى بيد المحتلين الايطاليين. ولما لم تستطع الدولة العثمانية مواصلة الحرب ضد ايطاليا بسبب الحروب البلقانية (١٩١٢-١٩١٣) م. فقد عقد الصلح بين الطرفين في ١٥ تشرين الأول ١٩١٢م.

ثورة الأمير عبد القادر الجزائري

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م أعلن قائد الجيش الفرنسي في تقريره ((بأنه ستخضع إلينا جميع المملكة خلال ١٥ يوماً وبدون طلقة واحدة))^(١١) ولكن قائد الجيش اخطأ الحساب إذ لم يخضع الفرنسيون البلاد إلا بعد مرور أربعين عاماً شنوا خلالها حروباً دموية ضد الشعب الجزائري، واستخدم الشعب الجزائري "تكتيك الأرض المحروقة" فوجدت القوات الفرنسية نفسها مراراً في وضع حرج إذ كانت تعتمد على تموينها محلياً. وأدى أسلوب المصادرة وأعمال النهب التي قام بها الجيش الفرنسي إلى رص صفوف السكان أكثر من ذي قبل وتوحيدهم لصد المعتدين.

٦١- لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٠٥

وفي غرب الجزائر، قاد حركة النضال ضد المحتلين البطل عبد القادر الجزائري فمن هو عبد القادر؟.

ولد عبد القادر في عام ١٨٠٧م من عائلة محي الدين المرابطية من قبيلة بني هاشم والتي تحتل مكاناً بارزاً في القبيلة. وترأس والده الطريقة القادرية، وهي الطريقة الدينية في غربي الجزائر، فنشأ نشأة دينية، وقد صحب عبد القادر أباه في الرحلة إلى بلاد المشرق إذ زار العراق ومصر والحجاز.

وفي صيف ١٨٣٢م اجتمع زعماء ثلاث من القبائل العربية واختاروا عبد القادر قائدا لهم، وعندئذ واجهته أصعب المهام، وهي التغلب على الانقسام الإقطاعي والقبلي وإخماد الخلافات القديمة بين القبائل وتوحيد الشعب لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسي.

ويمر التاريخ النضالي للأمير عبد القادر الجزائري بمرحلتين متميزتين: المرحلة الأولى تبدأ من انتخابه وتنتهي عام ١٨٣٩م حين بلغت قوة الأمير ذروتها إذ أصبح يسيطر على ثلثي الجزائر تقريباً، وتبدأ المرحلة الثانية عام ١٨٣٩م إلى أن سلم نفسه للفرنسيين بعد ثماني سنوات من الكفاح المرير.

أظهر الأمير براعة في الخطط، فقد بدأ بمراقبة القبائل الساكنة حول مراكز القوات الفرنسية بواسطة الواعظ الديني تارة وبالتهديد باستخدام القوة تارة أخرى. وقد ألزم عبد القادر الجزائري القبائل بقطع التموين عن الغزاة، والهجرة من الأراضي المحتلة، ثم رأى ضرورة اتخاذ مركز لقيادته فوق اختياره على مدينة معسكر.

وبدا خطته الحربية في المعارك التي دارت أواخر عام ١٨٣٣م معتمداً على عنصر المفاجئة "حرب الأنصار" وعدم مواجهة الفرنسيين في الميدان المكشوف. وبعد ما تكبدت فرنسا عدد من الهزائم والإخفاقات الكبيرة لقواتها. وافقت على المفاوضات مع الأمير عبد القادر. وفي شباط ١٨٣٤م عقدت حكومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر معه ما يعرف بمعاهدة "دي ميشيل" واعترفت هذه المعاهدة بان كل غربي الجزائر ما عدا ثلاث مدن ساحلية هي أراضي تابعة للدولة العربية الجديدة التي يتزعمها عبد القادر.

ركز عبد القادر جل اهتمامه، بعد المعاهدة على الجيش فهو الوسيلة الأساسية للكفاح ضد المحتلين، فضلاً عن اهتمامه بقوات المتطوعين من القبائل الذين بلغ عددهم سبعون ألف شخص، وكان للدولة الجديدة ١٢ مدفعاً صالحة للاستعمال من أصل ٣٦ مدفعاً. واستقدم عبد القادر المدربين من مراكش وتونس لتدريب وتنظيم وحدات الجيش النظامي، وحصل على مساعدة مالية من سلطان مراكش لتجهيز قواته.

ولإسكان الجيش والدفاع عن البلاد، شيد عبد القادر الثكنات والحصون وانشأ لتجهيز الجيش معملًا لصب الحديد ومعملين للبارود ومصنعا للمنسوجات. كما قام بإصلاحات إدارية فقسم البلاد إلى تسع مناطق يترأسها ولاية ينوبون عنه ويخضعون للسلطة المركزية للدولة.

وفي عام ١٨٣٥م نقض المحتلون الفرنسيون، كعادتهم بنود معاهدة عام ١٨٣٤م، فاقتحموا أراضي عبد القادر فانتهت بذلك مدة السلم بين الطرفين، وبعد ما فشلت القوات الفرنسية في تحقيق أغراضها العسكرية في السيطرة على مدينة قسنطينة في شتاء ١٨٣٦م فعقدوا معاهدة ثانية في ٣٠ أيار ١٨٣٧م، اضطر الفرنسيون فيها إلى الاعتراف بسلطة عبد القادر الجزائري لا في غربي الجزائر فحسب بل وفي أواسطها أيضاً.

وقامت القوات الفرنسية مرة ثانية في تشرين الأول ١٨٣٧م بإرسال قوات حربية كبيرة وتمكنوا من السيطرة على مدينة قسنطينة، واضطر حاكم المدينة الباي احمد إلى التقهقر إلى قلب البلاد للتوجه إلى الجبال إذ واصل المقاومة ضد الفرنسيين. وشرعت قبائل شرقي الجزائر في خوض حرب الأنصار ضد الغزاة. واعترفت بعبد القادر قائداً لها والتمست منه انتداب مفوضية إلى مناطق قسنطينة.

واستناداً إلى ذلك اتهم الفرنسيون عبد القادر بخرق معاهدة الصلح لعام ١٨٣٧م، وفي عام ١٨٣٩م أعلنوا حرباً جديدة ضده. وأعلن عبد القادر من جانبه الجهاد المقدس ضد فرنسا.

حشدت فرنسا سبعين ألف مقاتل، واستمرت بإرسال الإمدادات إلى الجزائر، حتى بلغ تعدادها عام ١٨٤٣م تسعين ألف شخص. وكان بحوزة الجيش الفرنسي معدات حربية حديثة، فلم يستطع عبد القادر مواجهة الفرنسيين في ساحة قتال مكشوفة لذلك اعتمد على حرب الأنصار فالحق خسائر كبيرة بالقوات الفرنسية، كما إن الحر الشديد وانتشار الأوبئة قد ساهم في القضاء على عدد آخر من الجنود الفرنسيين.

عملت الحكومة الفرنسية إلى تعيين المارشال بيجو وهو من اكبر القادة الفرنسيين، لقيادة الجيش الفرنسي في حروبه ضد عبد القادر وقد اتبع هذا أسلوباً جديداً في القتال عرف بنظام الطوابير المتحركة، وتمكنت هذه من السيطرة على بعض المدن والحصون واستخدموا الأساليب الوحشية لإرهاب الشعب الجزائري، وأبادوا القبائل الموالية لعبد القادر الجزائري عن بكرة أبيها. وبشهادة المساهمين في الحملات. وكتب احد المعاصرين قائلاً: "إن قطع رأس الأسير علانية لتلقين العرب درساً لاحترام السلطة كان أمراً هيناً لدى الفرنسيين"^{٦٢}.

ونتيجة لهذه الأعمال الوحشية استطاعت القوات الفرنسية من السيطرة على الأراضي التي كانت تابعة للأمير عبد القادر الجزائري مما اضطره في عام ١٨٤٤م إلى الالتجاء مع جماعته إلى مراكش التي كانت تساعد بشكل فعال طيلة تلك السنوات واخذ يعد العدة لمعارك جديدة.

وجه الفرنسيون إنذاراً إلى سلطان مراكش بتسليم عبد القادر الجزائري، ولكنه رفض ذلك فقامت القوات الفرنسية بقصف مدن مراكشية بمدفعية الأسطول الفرنسي، اضطر عبد القادر العودة إلى الجزائر، بعد فرض بريطانيا وفرنسا معاهدة جائرة على سلطان مراكش تمنعه من تقديم المساعدة لعبد القادر مع اعتباره خارجاً عن القانون وقاد الجزائري حركة الأنصار من جديد.

٦٢- لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢١١.

وبدأت حكومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر بمعاقبة القبائل الوطنية بان أصدرت مرسوما في تشرين الأول ١٨٤٦م صودرت بموجبه مساحات واسعة من الأراضي الزراعية. ففي منطقة الجزائر وحدها صادرت السلطات الفرنسية ١٦٨ ألف هكتار^(٦٣) ، استلم العرب منها ثلاثين ألف هكتار والمستعمرون الفرنسيون ١٣٨ ألف هكتار، وحدثت العملية ذاتها في سائر أنحاء البلاد.

لقد أدى نهب الأراضي الزراعية إلى نفاذ صبر السكان، ففي عام ١٨٤٥م انتفض جميع سكان غربي الجزائر في وجه المستعمرين الفرنسيين واستغاث بطل الانتفاضة "أبو معزى" بعبد القادر وسلمه قيادة النضال الشعبي.

فسارع الفرنسيون إلى زيادة عدد الجيش الفرنسي حتى بلغ تعداداه (١٠٨) ألف شخص، أبادت تلك القوات أعداداً كبيرة من السكان وضرب بعض جنرالات الجيش الفرنسي أرقاماً قياسية في الأعمال الهمجية التي ارتكبت خلال هذه الحملة. إذ طرد الجنرال الفرنسي أعداداً كبيرة من الجزائريين إلى الكهوف الجبلية فخنقهم بالدخان، وردم الجنرال الفرنسي "سانت أنو" في الكهوف ١٥٠٠ عربي بضمنهم الأطفال والنساء.

أخذت الانتفاضة تتضاءل جراء تلك الأعمال الوحشية لدعاة الحرية والمساواة، وصادرت أراضي أفراد القبائل. ولاحقت القوات الفرنسية دون كلل عبد القادر في محاولة منها لمحاصرته، إلا أنه تراجع إلى الواحات الصحراوية إذ واصل حرب الأنصار. لم يستطع الفرنسيون أسر عبد القادر وإرساله إلى فرنسا إلا في نهاية عام ١٨٤٧م. وسمح له بعد خمس سنوات بالذهاب إلى المشرق العربي. فعاش في عام ١٨٥٥م في دمشق إذ قضى هناك ما تبقى من حياته، وتوفي عام ١٨٨٣م^(٦٤). فانتهت بذلك الصفحات البطولية للأمير عبد القادر الجزائري، وما زال ذكره الطيب بين أفراد الشعب العربي، والوطنيين في العالم.

٦٣- الهكتار يساوي ١٠٠٠٠ متر مربع ، والدونم يساوي ٢٥٠٠ متر مربع.
٦٤- لوتسكي يراجع: لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٠١-٢١٤.

وينعد الأمير عبد القادر الجزائري الرائد الاوّل لبعث الفكر القومي العربي في أقطار المغرب العربي في القرن التاسع عشر، ومقاومته للمستعمرين كانت من ابرز ما شهده الوطن العربي من مقاومة للدفاع عن الوجود العربي ضد الغزاة الأجانب، وقد أكد الأمير على الهوية القومية للجزائر، ويتضح ذلك من خلال رسائله إلى المحتلين الفرنسيين. إذ كان يقول لهم " مهما مكثتم في بلاد العرب فانتم ليسوا سوى عابري سبيل، ولو طال مكثكم فيها ثلاثمائة عام مثل الترك سينتهي الأمر بخروجكم منها"^(٦٥)

وكان عبد القادر مؤمناً بان الشعب الجزائري شعب عربي مسلم ذو حضارة عريقة وتاريخ مجيد، وان الجزائر لا ترتبط بفرنسا بأية رابطة وإنما قد جاءت للقضاء على الشخصية العربية، وقد تجسدت أفكاره في قصائده وخطبه التي كانت تشيد بعظمة الأمة العربية وقوتها ومكانتها. ومن ذلك قوله:

إنا في كل مكرمة سجالٌ	ومن فوق السحاب لنا رجالٌ
ركبنا للمكارم كل هولٍ	وخضنا أبحراً ولها زجالٌ
فبالمجد القديم علتُ قریش	ومنا فوق إذ طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكر	بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر	رجال فالرجال هم الرجال ^(٦٦)

٦٥- خيرية عبد الصاحب وادي، الفكر القومي في المغرب العربي، بغداد ١٩٨٢، ص ٣٤-٣٥.
٦٦- للتفصيل يراجع: ممدوح حقي، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، بيروت ١٩٦٤.

الثورة العرابية في مصر

ظهرت قوى جديدة في طليعة الحركة الوطنية في مصر أوائل عام ١٨٨٠م، وكانت تلك القوى عناصر ديمقراطية راديكالية من الضباط ومنهم احمد عرابي. وقد شكل هؤلاء حزباً وطنياً يؤكد ضرورة إقامة حكم ديمقراطي والقضاء على سلطة الخديوي توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢) م وتسلط الوجهاء والملاكين من الأتراك والجراكسة.

قدمت جماعة الضباط الوطنيين، بزعامة احمد عرابي في أيار ١٨٨٠م احتجاجاً إلى وزير الحربية لعدم دفع الرواتب وإرسال الجنود إلى العمل الإجباري في أراضي الخديوي. إلا أن الاحتجاج لم يحظ بالقبول. وفي ١٧ كانون الثاني ١٨٨١م قدمت عريضة جديدة إلى رئيس الوزراء تتضمن المطالب نفسها والتحقيق مع وزير الحربية. وفي شباط ١٨٨١م اعتقل احمد عرابي واثنان من زملائه الضباط وقدموا إلى المحاكمة ولكن مؤيدوهم من الجنود اقتحموا قاعة المحكمة وأطلقوا سراح احمد عرابي وزملائه وتوجه عرابي إلى قصر الخديوي مع ألفي جندي وطالبوا بحقوق متساوية في الجيش، وعزل وزير الحربية، وتعيين محمود سامي البارودي عوضاً عنه.

لم تستقر الأمور فقد توتر الوضع في أوائل أيلول ١٨٨١م بشكل كبير، واعد الضباط الوطنيون انتفاضة جديدة ضد حكومة رياض باشا ولكن الخديوي اصدر أوامره بنقل احمد عرابي ومجموعة من الضباط الوطنيين. وتفادياً لضياع الوقت قرر القادة الوطنيون بزعامة احمد عرابي إعلان الثورة ضد حكومة رياض باشا. وقدموا إلى الخديوي المطالب التالية: إقالة وزارة رياض باشا فوراً، ومنح الدستور، وزيادة عدد افراد الجيش.

كانت هذه المطالب سياسية عامة لا مهنية ضيقة. فارتبك الخديوي وطلب الموظف البريطاني فطالب الأخير خديوي مصر بإلقاء القبض على قادة الثورة، ولكن دون

نتيجة. وعندها تقدم احمد عرابي^(٦٧) إلى الخديوي وسلمه مطالبب الثوار قائلاً: "حضر الجيش إلى هنا استناداً إلى إرادة الشعب وسوف لا نبرح المكان حتى تنفذ هذه المطالبب"^(٦٨).

وبعد مفاوضات بين الحكومة والثوار عرض على احمد عرابي الموافقة على عزل رياض باشا وتعيين شريف باشا رئيساً للوزراء بدلاً عنه أما فيما يتعلق بالمطلبين الآخرين، فاقترح تقديمهما إلى الباب العالي للبت فيهما. فوافق عرابي على المساومة. وتم سحب الجيش من القاهرة.

ومع ذلك كان لانتفاضة أيلول تعزيز لمكانة الوطنيين في البلاد وأصبح احمد عرابي قائداً لكافة الشعب المصري. على اثر ذلك شرعت الدول الأوروبية بإعداد تدخل مسلح رداً على ثورة أيلول ١٨٨١م ولكن تناقض الأطماع البريطانية والفرنسية أخرج الإعداد لمواجهة الثوار، وبعد مرور أيام قدمت الاقتراحات التالية من قبل البريطانيين:

- ١- تشتيت الوحدات الثورية وتوزيعها على حاميات الأرياف.
 - ٢- استخدام الأعيان من الملاكيين المعتدلين لمجابهة الضباط الثوريين.
- وشرعت حكومة شريف باشا بالتنفيذ ونقلت الوحدات العسكرية لأحمد عرابي من القاهرة، وتحول ذلك النقل للوحدات العسكرية إلى مظاهرة شعبية واسعة ضد حكومة القاهرة لتوديع عرابي باشا وجنوده حتى إن البريطانيين ذكروا بان "عرابي كان حاكم البلاد الفعلي"^(٦٩).

٦٧- احمد عرابي (١٨٤١-١٩١١) م ولد في ٣١ آذار ١٨٤١م في إحدى قرى مديرية الشرقية وكان والده يحتل منصب شيخ البلد، تعلم القراءة والكتابة، ثم درس في جامع الأزهر، وفي ٦ كانون الأول ١٨٥٤م التحق بالخدمة العسكرية جندياً، وبعد أربع سنوات، أصبح ضابطاً في الجيش المصري وبرز بشكل واضح في عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) م وتزعم زملانه الضباط وكسب حبههم وولائهم وفي سبعينات القرن التاسع عشر برز نشاطه العسكري والسياسي، وتولى زعامة الجيش والأمة المصرية. وقاد الثورة العرابية في أيلول ١٨٨١م وبعد فشلها عسكرياً نفي إلى جزيرة سيلان، ثم عاد إلى مصر بعد العفو عنه من الخديوي توفيق وتوفي في ٢١ أيلول ١٩١١م.

٦٨- احمد عرابي، كشف الستار عن سر الأسرار في الثورة العرابية، ج١، القاهرة ١٩٥٤، ص ٨٦.

٦٩- لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

عاد عرابي إلى القاهرة ووقف ضد حكومة الخديوي، ولذلك أخذت بريطانيا تعمل للقضاء على قوات عرابي باشا، ولمعرفة مطالب الثوار قابل المراقب المالي البريطاني في مصر في تشرين الثاني ١٨٨١م احمد عرابي وجرت اتصالات مكثفة بين البريطانيين والموالين لهم في الحكومة المصرية من جهة والثوار بقيادة احمد عرابي من جهة أخرى، وقد أصر خلالها احمد عرابي والوطنيون على تطبيق الدستور، ومنح الجيش حقوقه.

وفي ٨ كانون الثاني ١٨٨٢م قدمت حكومتا بريطانيا وفرنسا مذكرة، أكدت فيها المحافظة على عرش الخديوي وحكومته، وأدت هذه المذكرة إلى وقوع استياء عام في مصر حتى أنها قربت بين الأعيان والوطنيين مؤقتاً.

وعند مناقشة ميزانية الدولة من قبل مجلس النواب المصري أعلن المجلس إن حقه في التصويت على الميزانية لا يمكن أن يكون موضع نقاش مع الدول الأوربية، واستناداً إلى طلب المجلس استقالت وزارة شريف باشا. وفي الخامس من شباط ١٨٨٢م تألفت وزارة جديدة سيطر عليها الوطنيون، وترأسها محمود سامي البارودي الذي كان وزيراً للحربية في حكومة شريف. وعين وزيراً للحربية عرابي باشا قائد الوطنيين.

وفي السابع من شباط نشرت الوزارة الجديدة اللائحة الأساسية التي كان قد أعدها مجلس النواب والتي ضمنت للمجلس حقوقه، وأبطلت الميزانية الثنائية فعلاً، واحتجاجاً على ذلك غادر مصر المراقب المالي الفرنسي احد أعضاء لجنة المراقبة المالية الأجنبية في مصر. كما شرعت الحكومة الجديدة بإعداد قانون انتخابي جديد. أكثر ديمقراطية، كما أعدت عدة مشاريع تقدمية منها تأسيس البنك الزراعي وإصلاح المحاكم المختلطة، وتحقيق العدالة في جمع الضرائب. وإلغاء مشاريع قوانين العمل الإجباري.

أدى تأليف الوزارة الجديدة إلى يقظة الشعب المصري، وشرعت تنمو حركة زراعية فلاحية في الوجه البحري، وأكد القادة الوطنيون بان أراضي الملاكين تعود للفلاحين بحق.

أدت هذه الإجراءات التقدمية إلى تأمر الرجعيين من الإقطاعيين وملاكي الأراضي والضباط الجراكسة على حياة احمد عرابي. وفي ١١ نيسان ١٨٨٢م اكتشفت المؤامرة ومثل أمام المحكمة العسكرية ٥٠ شخصاً من المتآمرين.

إزاء تصاعد المد الوطني في مصر في ٢٠ أيار ١٨٨٢م تم قدوم أسطول بريطاني إلى الإسكندرية كما استلم الخديوي تعليمات بالاستفادة من تواجد الأسطول لكي يقلل الوزارة الوطنية ويؤلف وزارة جديدة برئاسة شريف باشا أو أي شخص يؤيد حكومة الخديوي، وفي ٢٥ أيار ١٨٨٢م طلبت بريطانيا وفرنسا رسمياً إلى الخديوي:

١- إبعاد عرابي عن مصر.

٢- إبعاد علي فهمي وعبد العال.

٣- إقالة وزارة محمود سامي البارودي.

فقبل الخديوي هذا الإنذار وأعلن إقالة الوزارة^(٧٠). وفي ٢٧ أيار أرسل ضباط حامية الإسكندرية برفقة إلى الخديوي بعد ما اطلعوا على أمر إقالة الوزارة. وأعلنوا عن عدم موافقتهم على إقالة عرابي وإنهم يعطون الخديوي مهلة قدرها ١٢ ساعة للتفكير، وسوف لا يكونون من بعدها مسؤولين عن السلامة العامة. وكان هذا بمثابة تهديد للقيام بانتفاضة. وطالب الوطنيون بدورهم بخلع الخديوي الخائن، وحدثت تظاهرات واجتماعات في جميع أنحاء البلاد، طالب المشاركون بخلع الخديوي وبتثبيت احمد عرابي والوزراء الوطنيين الآخرين في السلطة. وأخيراً وافق الخديوي على إعادة عرابي وحده إلى الوزارة، وفي ٣٠ أيار ١٨٨٢م اقترحت فرنسا عقد مؤتمر دولي

٧٠- لوتسكي، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

لبحث القضية المصرية، وعادت بريطانيا مرة أخرى تفكر في خطة التدخل العثماني فنصحت الخديوي بدون علم فرنسا أن يلتمس المعونة من السلطان (٧١).

وفعلاً أرسل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) م مبعوثيه درويش باشا وشيخ السعيد إلى القاهرة ، وعهد إليهما بحل الخلاف بين الخديوي وعرابي بروح المصالحة وكان كلا المبعوثين قد ارتشيا حال وصولهما القاهرة في ٧ حزيران ١٨٨٢م فتقدم درويش باشا إلى احمد عرابي باقتراح للشخص إلى اسطنبول ووعدته بمنصب كبير في الحكومة المركزية للدولة العثمانية. لكن عرابي رفض ذلك، وبذلك انتهت مهمة درويش باشا بالفشل.

طلبت بريطانيا من الخديوي إثارة الاضطرابات في مصر لإعطاء الحجة لقوات الأسطول البريطاني بالتدخل، وفعلاً جرت اضطرابات راح ضحيتها ٥٠ أوربيا و ١٤٠ مصرياً. ولكن عرابي تمكن من السيطرة على الاضطرابات الناشبة وإيقافها.

وبعد حادث الإسكندرية بدا انقسام القوى المتصارعة في داخل مصر أكثر وضوحاً. وفي ١٣ حزيران ١٨٨٢م هرب الخديوي توفيق من القاهرة إلى الإسكندرية ليكون تحت حماية الأسطول البريطاني، وهرب معه أكثر رجال الدولة والرجعيون كرياض باشا وشريف وسلطان باشا وغيرهم.

وفي ٢٠ حزيران من العام نفسه تألفت في الإسكندرية حكومة خاضعة للخديوي برئاسة راغب باشا فأصبحت الإسكندرية مركزاً للجماعة البريطانية - المصرية وبالعكس كانت السلطة في القاهرة تعود إلى الوطنيين وعرابي باشا ولذلك لاذ بالفرار من مصر الآلاف الأجانب الذين كانوا يخشون من غضب الشعب، وكذلك فعل الملاكون والمرابون، ورداً على ذلك قام عرابي بمصادرة ممتلكات المهاجرين المصريين الذين غادروا البلاد بدون إذن.

٧١- للتفصيل يراجع : تيودور روثستين، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة علي احمد شكري، القاهرة ١٩٢٧؛ تيودور روثستين، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠، بيروت ١٩٨١.

أصبحت مصر في صيف ١٨٨٢م معرضة إلى تدخل بريطاني حقيقي رأى الفرنسيون إن المخرج الوحيد من هذا المأزق هو عقد مؤتمر دولي بشأن القضية المصرية.

وفعلًا عقد مؤتمر في اسطنبول في ٢٣ حزيران ١٨٨٢م وشارك فيه ممثلون عن بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا والمجر وألمانيا وإيطاليا. ورفضت الدولة العثمانية الاشتراك في أعمال المؤتمر الذي رأت فيه خرقاً لحقوق سيادتها.

واستناداً إلى اقتراح فرنسا، تعهدت الدول المؤتمرة " بعدم السعي في مصر إلى اقتناء الأراضي أيا كان نوعها ولا الحصول على امتيازات ذات ميزات استثنائية وامتيازات تجارية لرعاياها" كما اتخذ قرار أيضاً بصدد تحاشي أي إجراءات منفردة في مصر، مازال المؤتمر منعقداً ثم أضيف إليه التحفظ "إذا لم يكن هناك أحوال طوارئ". ولم يكن على بريطانيا عندئذ إلا أن تخلق أحوالاً طارئة فتضع الدول أمام الأمر الواقع.

وكان المصريون يقومون بأعمال تحصينات على المدن المصرية الساحلية بأمر من عرابي باشا وذلك خلال وصول الأسطول البريطاني إلى الإسكندرية، فأمر الباب العالي بطلب من بريطانيا بإيقاف أعمال التحصينات، ومع ذلك استؤنفت في تموز أعمال الترميم، وفوراً اغتتمت بريطانيا ذلك كذريعة للتدخل في مصر.

وفي ٦ تموز ١٨٨٢م، قدم قائد الأسطول البريطاني في مصر إنذاراً نهائياً إلى رئيس حامية الإسكندرية طالباً إليه بتوقيف أعمال التحصينات لكنهم رفضوا ذلك. ثم قدم إنذاراً نهائياً في ١٠ تموز طالب فيه بتسليم التحصينات الساحلية في الإسكندرية خلال ٢٤ ساعة، وعندما استلم قائد الأسطول البريطاني الرفض المصري شرع بالأعمال الحربية. وفي ١١ تموز ١٨٨٢م قامت السفن البريطانية بقصف الإسكندرية وحولت المدينة إلى كومة من الأنقاض. وفي اليوم التالي اصدر احمد عرابي أمراً إلى قواته بمغادرة المدينة، وغادرها معهم الآلاف السكان، وبعد مرور أربعة أيام احتل جنود الإنزال البريطاني مدينة الإسكندرية.

كان قصف مدينة الإسكندرية بداية للحرب البريطانية – المصرية. وفي ٢٧ تموز ١٨٨٢م صوت مجلس العموم البريطاني على اعتمادات مالية للحملة على مصر. وانحاز الخديوي وجماعته إلى جانب بريطانيا، وصادر أمراً إلى عرابي باشا لإيقاف الحرب، ولكن الأخير رفض ذلك وفي ٢٢ تموز أعلن الخديوي عصيان عرابي، وعزله رسمياً من منصب وزير الحربية وأعلن عرابي رداً على ذلك بخيانة الخديوي.

شرع عرابي بتنظيم الدفاع عن مصر، فالتحق بالجيش الآلاف من الفلاحين وأهالي المدن المتطوعين. وتم شراء الأسلحة للمتطوعين وشكلت في القاهرة لجنة الطوارئ والمجلس الحربي ويتألف الأخير من الضباط الوطنيين. واسهم في لجنة الطوارئ فضلاً عن القادة الوطنيين العلماء والمشايخ والأعيان.

أدى نشوب الأعمال الحربية في مصر إلى استياء الدول. واحتجاجاً على ذلك دعت روسيا مندوبيها من مؤتمر القسطنطينية. وفوضت ألمانيا والنمسا حرية العمل لبريطانيا على شرط أن تتخذ الإجراءات على مسؤوليتها وليس استناداً إلى تفويض من أوروبا. وتقسمت الآراء في فرنسا، فمنهم من اقترح إرسال قوات فرنسية إلى مصر على أن تقتصر مهمتها على الدفاع عن قناة السويس في حين رأى آخرون المساهمة في التدخل المشترك مع بريطانيا.

وفي ٢ آب ١٨٨٢م احتلت القوات البريطانية السويس بدون خوض معركة، ثم جرت عملية إنزال جوي لقوات بريطانية في ٢٠ آب في بور سعيد والإسماعيلية. وبعدها أخذت القوات البريطانية تستعد للمعركة الحاسمة. وفي ١٣ أيلول قامت تلك القوات بهجوم سريع على المواقع المصرية في التل الكبير. وحققوا في المعركة انتصاراً واضحاً. وفي اليوم التالي اقتربت القوات البريطانية – الهندية من القاهرة فاستسلم عرابي وفي ٢٤ أيلول وصل القاهرة الخديوي توفيق مع وزرائه.

على اثر ذلك تقرر حل الجيش المصري. وفرضت على الشعب المصري تعويضات بلغت تسعة ملايين جنيه إسترليني. وفي كانون الأول ١٨٨٢م صدر حكم على احمد عرابي

وأنصاره بالموت، ولكن الحكم أٌبدل إلى النفي المؤبد إلى سيلان، إذ أدرك إن إعدامه قد يؤدي إلى انتفاضة جديدة. وابتعد مع عرابي ستة من قادة الانتفاضة. وهرب عشرات الوطنيين من البلاد. وعين اللورد كرومر حاكماً مطلقاً على مصر.

الفصل الخامس

الوطن العربي في عهد الإصلاحات " التنظيمات "

- إصلاحات محمد علي باشا في مصر.
- إصلاحات السلطان محمود الثاني.
- إصلاحات مدحت باشا في العراق.
- إصلاحات خير الدين التونسي.

إصلاحات محمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٩) م

كانت ولاية مصر قد شهدت تطورات واضحة في كافة مجالات الدولة الاقتصادية والثقافية والعسكرية والاجتماعية، وكان للوالي محمد علي باشا دور كبير في تلك التطورات، وفي الجانب الاقتصادي عمل الوالي على استغلال الأراضي المصرية بزراعة المحاصيل المهمة التي كان القطن في مقدمتها فضلاً عن محصول قصب السكر وبعض المحاصيل الأخرى. ولتطويرها استقدم الخبراء الزراعيين وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا لدراسة الأساليب الحديثة في الزراعة (٧٢).

ولتوفير مياه الري للأراضي الزراعية اهتم الوالي بتنظيم وسائل الري وتطويرها. فزادت مساحات الأراضي الزراعية من ٣٠٥٤٧١٠ فدان عام ١٨١٣م إلى ٣٨٥٦٢٢٦ فداناً عام ١٨٤٠م ثم إلى ٤١٦٠١٦٩ فداناً عام ١٨٥٢م.

لقد احدث محمد علي باشا تغييراً في ملكية الأراضي الزراعية في مصر، فألغى نظام الالتزام وأصبحت الأراضي تحت تصرفه وإدارته. كما عمل على استصلاح الأراضي لزيادة الإنتاج الزراعي، وأعطى قسماً من الأراضي من الضرائب بشرط استصلاحها وزراعتها.

وكان التوسع في زراعة القطن قد أدى إلى ارتفاع أهمية مصر الاقتصادية إذ وفرت للبلاد محصولاً اشدد الطلب الخارجي عليه، كما استخدم المحصول في مصر لصناعة المنسوجات القطنية.

وفي مجال الصناعة وضع محمد علي باشا أسس التطور الصناعي في مصر معتمداً على إمكانيات البلاد المادية والبشرية لتحقيق النهضة الصناعية. فقد أنشأ مصانع لسد احتياجات الجيش من الملابس والأغطية والطرابيش، كما أنشأ مصانع للأسلحة والذخيرة في القاهرة، وترسانة في الإسكندرية لصناعة وتصليح السفن الحربية، وتوسعت صناعة الحديد لسد حاجة الجيش والأسطول. كما أسس مصنعاً للدباغة.

٧٢- للتفصيل عن ذلك يراجع: احمد الحتة، تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، دار المعارف بمصر، ١٩٥٠.

لم يقتصر نشاط محمد علي باشا على الصناعات العسكرية، فقد أسس مصانع للزجاج وأخرى للسكر. ودبغ الجلود والطحين واستخراج الزيوت النباتية فضلاً عن بعض الصناعات التحويلية كالغزل والنسيج بأنواعها.^(٧٣)

وبهدف تطوير الصناعة في مصر أمر الوالي معاونيه في ضرورة الاستغناء عن البضائع الأجنبية والاستعانة عنها بالمنتجات المحلية، كما عمل على تشجيع الصادرات من المنتجات الصناعية وأمر بإعفائها من الرسوم الكمركية.

وبذلك نستطيع أن نقول بان محمد علي باشا كان "رائداً في وضع الخطوط الرئيسية للاستثمار والزراعي والصناعي" في مصر. وقد وضع أساس الصناعة المصرية بجهوده الذاتية ونشاطه الإصلاحية.

وفي مجال التجارة كانت ولاية مصر تشكل أهمية سوقية طوال القرن التاسع عشر، وحتى الوقت الحاضر، كونها منطلقاً للتجارة العابرة بين الهند وأوروبا. وفي عهد محمد علي باشا تدخلت الحكومة في المعاملات التجارية الداخلية والخارجية.

وفي مجال حركة النقل أسست الحكومة المصرية في عام ١٨٤٥م شركة الملاحة البحرية بين الإسكندرية واسطنبول عن طريق البحر المتوسط، وأنشأت منارة الإسكندرية لإرشاد السفن القادمة إلى الميناء كما أنشأت مخازن لحفظ البضائع ودائرة للكمارك ومساكن لموظفي الشركة.

وشهدت ولاية مصر في عهد محمد علي باشا نهضة كبيرة في الجانب الثقافي^(٧٤) فقد وضع الوالي أساس النهضة العربية الحديثة في مصر. فكان تأسيس المدارس الحديثة وإرسال البعثات العلمية إلى خارج مصر هما ركنا الإصلاح في ولاية مصر الجديدة.

٧٣- للتفاصيل يراجع: علي الجرتلي، تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢.

٧٤- عن الجانب الثقافي يراجع: احمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي باشا ; جمال الدين الشيبان، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة ١٩٥١.

وكانت أول بعثة علمية من مصر إلى إيطاليا في عام ١٨١٣م وأخرها إلى بريطانيا عام ١٨٣٨م وشهد عام ١٨٤٦م ما سمي بـ "البعثة الكبرى" إذ أرسل سبعين طالباً للدراسة في أوروبا. وانشأ محمد علي العديد من المدارس التي تعتمد المناهج الدراسية الحديثة أساساً في التعليم لعل من أبرزها مدرسة الطب، ومدرسة الترجمة، ومدرسة المهندسين، وساهمت مدرسة الترجمة في نقل الكثير من المعارف والعلوم الأوروبية إلى الطلبة والمثقفين بعد ترجمتها من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وتأسست المدارس الابتدائية الحديثة في مصر عام ١٨٣٣م، وازدهرت حركة التعليم الحديث بين الأعوام ١٨٣٦ و ١٨٤٠م.

وفي مجال الصحافة سبقت مصر، حتى الدولة العثمانية في إصدار الصحف. ففي عام ١٨٢٨م أصدرت الحكومة المصرية "الوقائع المصرية".

وفي مجال الإصلاح الإداري جعل محمد علي باشا على رأس الإدارة عدة دواوين للنظر في شؤونها المختلفة مثل ديوان الداخلية، وديوان الحربية، وديوان الخارجية، وديوان البحرية، وديوان التجارة، وديوان المعارف العمومية وديوان الصحة، وديوان الزراعة، وجعل: المجلس الخاص" برئاسته المشرف والموجه لتلك الدواوين. ويجتمع المجلس بين مدة وأخرى لمناقشة كل الأمور المهمة والخاصة بولاية مصر^(٧٥).

وفي المجال العسكري استطاع محمد علي باشا خلال مدة ولايته في مصر ان يكون جيشاً قوياً حقق به انتصارات عديدة منها انتصاره على قوات السلطان العثماني محمود الثاني عام ١٨٣٩م في موقعة نصيبين^(٧٦).

٧٥- الديوان هو بمثابة الوزارة، والمجلس الخاص يعني مجلس الوزراء ويترأسه الوالي.
٧٦- للتفاصيل للفكر العسكري لمحمد علي باشا يراجع: محمد علي عبيدات، محمد علي باشا والإستراتيجية العسكرية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ والتراث العربي، بغداد ١٩٩٨.

واعتمد السلطان القوة في عملية التجنيد الإلزامي حتى بلغ عدد أفراد الجيش المصري عام ١٨٣٩م مئة وخمسين ألف جندي، وعدد أفراد البحرية المصرية ستة عشر ألف شخص يعاونهم ٨٣٥٨ عاملاً في ترسانة إصلاح السفن مع قوات غير نظامية بلغ عددها اثنين وعشرين ألف رجل في العام نفسه. ولكن التدخل الأوربي أدى إلى تقليص عدد أفراد الجيش المصري بعد حرب عام ١٨٣٩م وعقد معاهدة لندن عام ١٨٤٠ فقد حدد عددهم بثمانية عشر ألف جندي وقت السلم.

وبعد توقيع المعاهدة تحددت صلاحيات الوالي محمد علي باشا في داخل حدود ولاية مصر، كما عملت الدول الكبرى لاسيما بريطانيا على تحجيم طموحات محمد علي باشا ومنع تطور مؤسسات الولاية بهدف إضعافها والسيطرة عليها مستقبلاً، وكانت القروض المالية احد الوسائل التي اتخذتها تلك الدول للتدخل في شؤون الولاية.

إصلاحات السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) م

تمثل القضاء على قوات الانكشارية^(٧٧) عام ١٨٢٦م بداية لحركة الإصلاح في عهد السلطان محمود الثاني، وذلك لان تلك القوات كانت تعارض كل حركة إصلاح للقوات العسكرية في الدولة العثمانية. وبعد القضاء على القوات الانكشارية شكلت "العساكر المحمدية المنصورة" الجيش الجديد. فكانت البداية لخطة شاملة للإصلاح أعدها السلطان محمود الثاني.

وفي مجال التعليم تم تشييد مؤسسات تعليمية حديثة مع إحياء وتطوير المؤسسات التعليمية القديمة. وتحديث مناهج التدريس. وفي عام ١٨٢٧م افتتحت مدرسة حديثة للطب لإعداد الأطباء، كما تم إيفاد عدد من الطلاب إلى أوروبا للحصول على العلوم الحديثة.

٧٧- للتفاصيل عن القوات الانكشارية يراجع: علاء نورس، مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (مجلة كلية الآداب، العدد ٣٠، بغداد ١٩٨١)، والانكشارية هي القوات العسكرية العثمانية التي كانت الأساس في تحقيق الانتصارات خلال حروب الدول، ولكن ضعف تلك القوات وعدم قبولها بالتغيير كان وراء الهزائم التي تعرضت لها الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٣٠م افتتح معهد المعلمين، ثم مدرسة مهنية لتعليم البناء (الهندسة المعمارية)، فضلاً عن تأسيس عدد من المدارس العسكرية بهدف تطوير القدرات القتالية للجيش العثماني الجديد وفي عام ١٨٣٤م أنشئت أربع مدارس طبية لخدمة الجيش، كما تم إصلاح البحرية العثمانية وتأسيس مدرسة العلوم القضائية، ومدرسة العلوم الأدبية في اسطنبول.

ونالت الطباعة والصحافة وأمور المالية اهتماماً من قبل السلطة العثمانية. وفي مجال الصناعة أسست مصانع الورق. وفي عام ١٨٣١م جرى أول إحصاء للسكان، كما أنشئت مراكز للحجر الصحي وشكلت هيئة البريد. وفي عام ١٨٣٤م أعيد فتح السفارات العثمانية.

وفي مجال الاهتمام بالصحافة صدرت في عام ١٨٣١م أول صحيفة عثمانية باسم "تقويم وقائع" وبعد سنتين أنشئ قسم للترجمة مهمته ترجمة الكتب الأجنبية العلمية والأدبية إلى اللغة التركية.

وشهدت حركة الإصلاح في أواخر عهد السلطان محمود الثاني تقدماً ملحوظاً عندما شكلت أواخر عام ١٨٣٧م لجنة دائمة تخطط للإصلاح بشكل منظم وشامل، وفي عام ١٨٣٨م شكلت نظارة المالية (وزارة المالية) لتكون الأساس في تشكيل هيئة الوكلاء (مجلس الوزراء).

أصبحت تلك الإصلاحات التي قام بها السلطان محمود الثاني قاعدة وبداية للإصلاحات التي بدأت مع اعتلاء خلفه عبد المجيد الأول عرش السلطنة (١٨٣٩-١٨٦١) م. لذلك عدّ السلطان محمود الثاني واضع أساس الحكومة المركزية الحديثة في الدولة العثمانية، كما عدّ محمود الثاني اقدر سلطان عثماني منذ عهد السلطان سليمان القانوني وأصبحت سلطة الحكومة المركزية في عهده أقوى مما كانت عليه من قبل. ولذلك وصف السلطان محمود الثاني بأعظم السلاطين في "تركيا الحديثة".^(٧٨)

٧٨- للتفصيل عن إصلاحات السلطان محمود الثاني يراجع: محمد عبد اللطيف البحراني، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩، دار السلام ١٩٧٨.

إصلاحات مدحت باشا في العراق^(٧٩)

يُعد مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٤) م احد ابرز المصلحين في الدولة العثمانية، حتى اعتبره البعض انه "أبو الدستور العثماني"^(٨٠) الذي صدر في عام ١٨٧٦م.

ولد مدحت باشا في اسطنبول في أيلول ١٨٢٢م، نشأ نشأة دينية فحفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، عمل موظفاً في دوائر الدولة العثمانية، وتدرج في الوظائف الحكومية حتى أصبح في عام ١٨٥٠م رئيساً لقلم الصدارة. ثم زار بعض المدن الأوروبية لندن وباريس وفيينا وبلجيكا، حصل على رتبة الباشوية عام ١٨٦٠م. فعين والياً على نيش في بلغاريا عام ١٨٦١م وقام بإصلاحات مهمة في الولاية.

وفي نهاية عام ١٨٦٤م أوكل إليه منصب الوالي في الطونة (الدانوب) ونظم أمور الولاية وأصلح الري واهتم بالزراعة ونظم الأمور المالية. وفي مجال النقل أنشأ الطرق والجسور، ومد خطوط السكك الحديدية وشجع التعليم.

وفي ٣٠ نيسان ١٨٦٩م أصبح والياً في العراق وقام بإصلاحات عديدة أكسبته شهرة واسعة في بلاد الرافدين، ففي الجانب الثقافي اهتم مدحت باشا بإنشاء المدارس الحديثة والمطابع وأصدر صحيفة الزوراء وكانت الطباعة والصحافة^(٨١) من أولى اهتمامات مدحت باشا فجلب معه مطبعة من اسطنبول باشرت بإصدار أول صحيفة في العراق وصدر عددها الأول في ١٥ حزيران ١٨٦٩، واستمرت في الصدور حتى آذار ١٩١٧م. وكان مجموع ما صدر منها ٢٦٠٦ عدداً. وفي مجال التعليم اهتم مدحت باشا بإنشاء المدارس الحديثة التي تدرس فيها العلوم الحديثة. وكانت أول مدرسة

٧٩- للتفاصيل عن إصلاحات مدحت باشا في العراق يراجع: محمد عصفور سلمان، العراق في عهد مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢، بغداد ٢٠١٠.

٨٠- للتفاصيل يراجع: قدرى قلجى، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، بيروت ١٩٥١؛ احمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة ١٩٤٨؛ مذكرات مدحت باشا، تعريب يوسف كمال حتاتة، القاهرة ١٩١٣.

٨١- وعن الطباعة والصحافة يراجع: عباس ياسر الزبيدي، تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى عام ١٩٣٦، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥؛ جواد بطي، تاريخ الطباعة في العراق، بغداد ١٩٦٣؛ خليل صايات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة ١٩٥٨؛ عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية بغداد ١٩٧٥.

أنشأها الوالي هي المدرسة الرشدية العسكرية في العام ١٨٦٩م. ومدة الدراسة فيها أربع سنوات يدرس فيها التلاميذ اللغات العربية والتركية والفارسية والجغرافية والدين والحساب والخط. ثم أنشئت مدارس أخرى في كركوك، وإعدادية عسكرية في بغداد عام ١٨٧١م وقبلها تأسست مدرسة حديثة في العام ١٨٧٠م لإعداد موظفين للولاية. فضلاً عن تأسيس مدرسة مهنية "مدرسة الصنائع". أما المدارس الابتدائية فلم تؤسس في العراق إلا في العام ١٨٨٩م لذلك بقى التعليم الابتدائي مقتصرًا على الكتاتيب^(٨٢).

وفي الإصلاحات العامة ألغى الوالي عدد من الضرائب التي أثقلت كاهل المواطنين العراقيين والتي لا ينص عليها القانون، ووضع نظاماً عادلاً للضرائب. وأنشئت مستشفى في الجانب الغربي من بغداد سميت "دار الغرباء" افتتحت عام ١٨٧٢م، كما تأسست مراكز للحجر الصحي في مناطق الحدود للحد من انتشار الأمراض الانتقالية التي كانت تنتقل عن طريق المسافرين.

واهتمت حكومة مدحت باشا بخدمات البريد والتلغراف وتأسست أول خدمة بريدية عامة عام ١٨٦٨م توسعت في العام ١٨٦٩م، وفي العام ١٨٧١م انتشرت خطوط التلغراف في أغلب المدن العراقية. كما شجعت الحكومة الأهالي على بناء الدور السكنية الحديثة، فضلاً عن إنشاء السلطة الخانات (الفنادق) على الطرق الخارجية وفي المدن.

وفي الجانب الإداري طبق قانون الولايات العثماني الصادر في الثامن من تشرين الثاني ١٨٦٤م، وقد طبق القانون في عهد مدحت باشا. وقسم العراق بموجب القانون إلى ولايتين بغداد والموصل، وقسمت الولاية إلى ألوية واللواء إلى أقضية والقضاء إلى نواحي والنواحي إلى قرى. وشكلت مجالس إدارية لكل من اللواء والقضاء والناحية تضم عدداً من الأشخاص. أما القرية فكان يوجد المختار. وفي العام ١٨٦٩م أسست

٨٢- للتفاصيل عن التعليم في العراق يراجع: إبراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩-١٩٣٢، البصرة ١٩٨٢؛ جميل موسى النجار، تاريخ التعليم في العراق في العصر العثماني الأخير، بغداد ٢٠٠١؛ عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني.

الدوائر البلدية للاهتمام بنظافة المدن، وكانت البلديات أيضاً تحدد الأسعار للمواد الغذائية.

وأعطى للقضاء جانب من اهتمام الدولة العثمانية في بغداد. وكان ديوان التمييز أهم هيئة قضائية في الولاية. قد يساعد تنظيم إدارات الولاية على إزالة معالم الفوضى الإدارية التي كانت سائدة في العراق وفرض درجة من التوحيد في العراق.

أما إصلاحات مدحت باشا الاقتصادية فقد بذل الوالي جهداً ملحوظاً لتحقيق نوع من التطور الاقتصادي في العراق. وكانت أولى مجهوداته تطبيق قانون الأراضي العثماني الصادر عام ١٨٥٨م والذي نص على تنظيم توزيع الأراضي في الدولة العثمانية على مستحقيها بهدف زراعتها وزيادة الإنتاج. كما تأسست دوائر للطابو لتنظيم تسجيل الأراضي بأسماء أصحابها وحددت نسبة من الضرائب تؤخذ على الأرض والمحاصيل الزراعية.

أدت هذه الإجراءات إلى استقرار البدو في الأرض مما أدى إلى زيادة نسبة الفلاحين وانخفاض نسبة البدو الرحل. كما ظهرت فئة اهتمت بزراعة الأرض وزيادة الإنتاج لتحقيق الربح والحصول على الأموال. فادى ذلك إلى تطور سياسة التصدير والاستيراد^(٨٣) وشملت إصلاحات مدحت باشا اهتماماً ولو بسيطاً في مجال الري وتحسين وسائله لزيادة الإنتاج الزراعي، كما بذل الوالي جهوداً مخصصة لتطوير وسائل النقل النهرية والبحرية والبرية. فانشأ "ترامواي الكاظمية" لنقل المسافرين من مركز بغداد إلى الكاظمية، وهو عبارة عن عربات تجرها الخيول تسير على خط حديدي. كما انشأ جسر لربط جانب الكرخ بالرصافة، وتم أيضاً شراء بواخر لنقل البضائع التجارية، وسفن نهريّة في الداخل.

٨٣- للتفاصيل عن التطور الاقتصادي يراجع: محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤-١٩٥٨، ج١، بيروت ١٩٧٥.

ونتيجة لزيادة الإنتاج الزراعي، كالحبوب والتمور، ولحاجة العراق إلى المواد الضرورية اهتم مدحت باشا بتنشيط حركة التجارة فارتبط العراق بحركة الأسواق العالمية.

أما الصناعة في العراق^(٨٤) فكانت بسيطة وبدائية، وعلى الرغم من ذلك عمل الوالي على الاهتمام باستيراد مكائن للغزل والنسيج الصوفي من الخارج، وكانت صناعة النسيج في العراق تشكل أهم الصناعات العراقية وتعد البصرة الميناء الوحيد للتصدير والاستيراد عن طريق البحر^(٨٥) فضلاً عن القوافل التجارية البرية إلى اسطنبول وبلاد الشام وإيران.

ولحماية العراق من الأخطار الخارجية وتحقيق الأمن والاستقرار في الدخل أولى مدحت باشا اهتماماً لتنظيم الجيش وتجهيزه، كما عمل على تحسين البحرية، فأولى اهتمامه بترسانة البصرة وشراء السفن، ولتحقيق السيادة العثمانية في سواحل الخليج العربي أرسلت حملة من العراق للسيطرة على منطقة الإحساء في العام ١٨٧١م، كما حاول جهد إمكانه تحسين العلاقة بين الحكومة العثمانية والعشائر العراقية، وكذلك تنظيم العلاقات مع الدول الأخرى وبما يضمن حقوق الدولة العثمانية.

وعُدت إصلاحات مدحت باشا في العراق بداية لمرحلة جديدة في تاريخ العراق الحديث. وفي ذلك يشير لونكريك بان " ما أنجز من أعمال في العراق الحديث يرجع فضله إلى مدحت باشا حيث انفرد عن بقية الولاة بإصلاحات جمة ومفيدة.^(٨٦) وان مدحت باشا كان أكثر حكام العراق وأعظمهم شهرة في العصر الحديث، وانه من أشهر وأفضل الولاة الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية إلى العراق.

٨٤- وعن الصناعة في العراق يراجع: كاتلين لانكلي، تصنيع العراق، ترجمة محمد حامد الطائي وخطاب حكار العلي، بغداد ١٩٦٣.

٨٥- للتفاصيل عن دور البصرة التجاري يراجع: حسين محمد القهواتي: دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤، بغداد ١٩٦٣.

٨٦- لونكريك، المصدر السابق، ص ٣٤٥.

إصلاحات خير الدين التونسي

ولد خير الدين عام ١٨٢٠م في قرية بجبال القوقاز، ينتمي إلى قبيلة "أبازة" ببلاد الشركس بالجنوب الشرقي من جبال القوقاز، توفي والده في إحدى حروب الدولة العثمانية ضد روسيا، فاسر وهو طفل على اثر غارة في الحرب، ثم بيع في سوق العبيد باسطنبول وتربي في بيت نقيب الأشراف تحسين بك، وانتهى به المطاف إلى قصر حاكم تونس وهو في السابعة عشرة من العمر، وأصبح مملوكاً لأحمد باشا باي (١٨٣٧-١٨٥٥) م الذي قربه وحرص على تربيته وتعليمه.

تعلم خير الدين اللغة الفرنسية فضلاً عن العربية، وعندما انتهى دراسته دخل الجيش فظهر موهبة وذكاء حادا وجهودا طيبة. فعهد إليه إدارة المدرسة العسكرية مدة من الزمن. ثم عين مشرفاً على مكتب العلوم الحربية واتضحت خصاله الحربية جلية وفاز بالمراتب العسكرية عن جدارة فولاه احمد باي أميراً للواء الخيالة عام ١٨٤٩م.

سافر خير الدين التونسي إلى باريس عام ١٨٥٣م بتكليف من احمد الباي لمقاضاة ملتزم ضرائب سابق اختلس أموال الدولة وهرب بها إلى فرنسا وحصل على الجنسية الفرنسية، وقد طالبت إقامته حتى بلغت أربع سنوات نجح في أثنائها استعادة ٢٤ مليون فرنك إلى خزينة تونس.

وفي عهد محمد الباي (١٨٥٥-١٨٥٩) م عين وزيراً للبحرية عام ١٨٥٧م وظل خير الدين في المنصب سبع سنوات متواصلة، أجرى خلالها المزيد من الإصلاحات أهمها تحسين ميناء "حلق الوادي" وتنظيم إدارة الوزارة وإصلاح لباس الجيش البحري وضبط الاتفاقيات والقوانين مع الدول الأخرى. كما قام بإصلاحات أخرى منها إنشاء مصنع لبناء السفن وإصلاحها وشق الطرق. وكان أهمها اتجاهه إلى التحديث، وإلى الشروع ببناء الدولة المتطورة والمجتمع الراقى. بعد ما شاهد ما وصلت إليه فرنسا من تطور وتمدن إذ استقر فيها أربع سنوات متواصلة (١٨٥٣-١٨٥٦).

كان خير الدين محباً للإصلاح مناصراً له، فأيد "محمد الباي" حين اصدر "عهد الأمان" عام ١٨٥٧م والذي ضمن لجميع سكان تونس المساواة في الحقوق ووقف إلى جانب "الصادق باي" الذي خلف أخاه "محمد الباي" حين اصدر الدستور عام ١٨٦١م وساهم خير الدين في وضع قوانين مجلس الشورى الذي أصبح رئيساً له عام ١٨٦١م وانشيء بمقتضاه مجلس استشاري مكون من ستين عضواً سمي "المجلس الأكبر" وعين خير الدين رئيساً له.

نشأ خلاف بين خير الدين وبين الوزير مصطفى الخزندار ، وذلك لممارسات وزير المالية حول أمر الاستدانة من المرابين الأوربيين ، فآثر الاستقالة من منصبه في آخر كانون الأول ١٨٦٢م. واستمر انقطاعه عن الوظيفة حتى عام ١٨٦٩م.

بقي خير الدين بعيداً عن الوظيفة ، ولكن الباي (الحاكم) كان يستشيريه في بعض الأمور، كما انه ظل على مقربة من القضايا الدقيقة التي لها علاقة بتونس وسياستها الخارجية. وخلال السبع سنوات اكتسب خبرة في السياسة الخارجية ، لذلك أرسله الباي موفداً من قبله إلى كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وهولندا والدنمارك وبلجيكا. وخلال مهمته تلك تمكن دراسة أحوال تلك الدول والتعرف على نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد أدى عكوفه على دراسة ما هو قائم في الغرب إلى تأليف كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" وترجمت مقدمته إلى اللغة الفرنسية وطبعت في باريس بعنوان "الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية" وشرح في المقدمة أوضاع المسلمين وحاجتهم إلى الإصلاح. واتبع المقدمة بكتاب أسهب فيه شرحاً لأوضاع الدول الأوربية التي زارها وما هي عليه من تقدم ورقي وطبع الكتاب عام ١٨٦٧م.

وفي العام ١٨٧١ اختير خير الدين التونسي ليكون وزيراً لمعالجة الوضع المالي المتردي لتونس ، وبعد عامين تولى منصب رئيس الوزراء (١٨٧٣ - ١٨٧٧) م نهض خلالها بمسؤوليته ، وبعث في تونس روحاً جديدة وثابتة وأصلح كثيراً من شؤونها.

وكانت ابرز إصلاحاته عند توليه منصب رئيس الوزراء الاهتمام بالجانب الثقافي. فانشأ "مدرسة الصادقية" عام ١٨٧٤م ونظم التعليم في جامع الزيتونة ، وانشأ المدرسة العبدلية، فضلاً عن تشجيعه الطباعة والصحافة والنشر. وأوكل للمطبعة نشر الكتب العلمية والأدبية، وأول ما طبع فيها "مجموعة قوانين دولية" وكانت صحيفة "الرائد" الصحيفة الرسمية في تونس.

وفي المجال الاقتصادي قسم الأراضي الزراعية إلى مناطق وشجع على استثمارها وشدد على معاقبة الجباة والمرتشين والمختلسين، وألغى الضرائب غير العادلة التي تراكمت على الناس، وخفض قيمة ضرائب أخرى.

وشجع على زراعة أشجار النخيل والزيتون، وأعفى المزارعين لهذين النوعين من الأشجار من الضرائب لمدة عشرين عاماً، حتى أصبحت الأراضي المزروعة في عهده حوالي مليون هكتار (الهكتار ١٠٠٠٠ متر مربع) بعد أن كانت لا تتجاوز الستين ألف هكتار وحدد ضريبة الاستيراد ب ٥% فقط وخفض ضريبة التصدير لتشجيع الإنتاج وانشأ المخافر لمنع التهريب.

واهتم بالوظائف الحكومية وحدد رواتب الموظفين بما ينسجم مع الحالة الاقتصادية وطبيعة الأسعار، ووضع الأسس السليمة لميزانية الدولة على الطراز الحديث ونظمها مخصصاً قسماً منها لرفع فوائد الديون والقسم الثاني لضروريات الحكومة، وأعاد للأوقاف دورها الديني والاجتماعي. وكان من حسن حظ خير الدين إن زاد الخصب في العامين الأولين من وزارته. ومع تنظيم الأمور في وزارته، أدى كل ذلك إلى ازدهار الزراعة والصناعة، والوفاء بالتزامات الديون، فعرفت تونس في عهده أعواماً من الطمأنينة والهدوء.

أما السياسة الخارجية التي اتبعتها خير الدين التونسي فكانت قائمة على الحزم مع القناصل والوضوح في آن واحد. وكانت فرنسا تتحين الفرص لبسط نفوذها على تونس، وكانت إيطاليا تزاحم فرنسا بالدسائس، ولذلك رأى ضرورة توثيق الصلات مع

الدولة العثمانية، ونجح في إقناع اسطنبول بتوثيق صلاتها مع تونس، وإصدار فرمان سلطاني يقرر أن تونس ولاية عثمانية، على إن لحاكمها سيادة داخلية. لكن الوشايات على خير الدين جعلت الأخير يقدم استقالته من منصب رئيس الوزراء في ٢١ تموز ١٨٧٧م وعاش في قصره بعيداً عن المشاركة في الحياة العامة والحياة السياسية.

وبسبب خبرته الجيدة تم تعيينه من قبل السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) للاستفادة منه في حركة الإصلاح فسافر إلى اسطنبول في أيلول ١٨٧٨م، وأسندت إليه رئاسة لجنة تقوم بمراجعة الوضع المالي للدولة العثمانية. ثم لم يلبث أن عينه السلطان "صدراً أعظم" رئيس وزراء في ٤ كانون الأول ١٨٧٨م. ولكن الظروف لم تكن مؤاتية للعمل المثمر بعد تكالب الأعداء على الدولة العثمانية.

ساهم خير الدين التونسي في خلع الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) م من ولاية مصر، لان سياسته كانت تؤدي إلى ضعف ارتباط مصر بالدولة العثمانية.

وكانت السياسة التي آمن بها خير الدين هي توطيد الروابط بين الدولة العثمانية وولاياتها، ولما اخفق خير الدين في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بإصلاح نظام الحكم قدم استقالته من منصبه في ٢٨ تموز ١٨٧٩م وبعد استقالته أصبح عضواً في مجلس الأعيان حتى وفاته في الثلاثين من كانون الثاني ١٨٩٠. (٨٧)

وكانت الحركة الإصلاحية عند خير الدين تقوم على دعامين رئيسيتين :-

الأولى: ضرورة التجديد والاجتهاد في الشريعة الإسلامية، بما يتلاءم مع ظروف العصر وأحوال المسلمين، ويتفق مع ثوابت الشريعة. ودعا علماء الأمة إلى توسيع مفهوم السياسة الشرعية.

الثانية: ضرورة الأخذ بالمعارف وأسباب العمران الموجودة في أوربا لأنها طريق المجتمع إلى النهوض، والعمل على تأسيس الدولة على دعامتي الحرية والعدل.

٨٧- وفي آذار ١٩٦٨ استقبلت تونس وفاة خير الدين باشا التونسي ليدفن في البلاد.

كان خير الدين داعية إلى الإصلاح الشامل الذي يقوم على أساس العدل والمساواة في حكم الرعية، ورفع مظاهر الظلم والتعسف عن كاهله واحترام حقوقه الإنسانية، ولن يتحقق هذا إلا من خلال نظام حكم يقوم على الشورى، وتعدد مؤسسات الحكم، والابتعاد عن الحكم الدكتاتوري والانفراد بالسلطة وإبعاد الشعب عن المشاركة. مقابل ذلك اشترط أن تكون الأمة واعية مستتيرة تدرك مسؤوليتها، وتحسن ممارسة ما عليها من واجبات^(٨٨).

٨٨- للتفاصيل يراجع: احمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٥؛ سمير أبو حمدان، موسوعة عصر النهضة خير الدين التونسي، بيروت ١٩٩٣؛ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٧٧م؛ المنجي أشملي، خير الدين باشا، تونس ١٩٧٣.

الفصل السادس

"اتجاهات حركة النهضة العربية في الوطن العربي"

- تمهيد
- المفكرون والمصلحون في الوطن العربي
- رفاة رافع الطهطاوي.
- فرح أنطوان.
- محمد عبده.
- نموذج للجمعيات والمؤتمرات في الوطن العربي العربية
- والثورة الكبرى.
- جمعية بيروت السرية.
- الانقلاب العثماني.
- المؤتمر العربي الأول في باريس.
- الثورة العربية الكبرى.

تمهيد

شهد أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين تنامي الوعي القومي العربي، وقد سبقت حركة الوعي القومي هذه نهضة فكرية بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وشملت مختلف جوانب الحياة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية^(٨٩). ولقد أثمرت تلك النهضة الفكرية واخذ صداها يترك آثاره على الأوضاع السياسية في الولايات العربية، وكان الاتصال بالأوروبيين والاطلاع على الحضارة الأوروبية وأنظمة الحكم فيها. والمبادئ التي تنادي بها تلك الأنظمة والأسس التي قامت عليها من العوامل التي أحدثت التغييرات وأدت دوراً ملموساً في ظهور الأفكار الجديدة وتطورها في الولايات العربية وظهور عدد من المثقفين والمصلحين والجمعيات أدت دوراً في تطور الفكر السياسي في الولايات العربية^(٩٠).

وهكذا ظهرت في الوطن العربي أواخر القرن التاسع عشر اتجاهات فكرية عديدة كان منها اتجاه ديني – إصلاحي مثله جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٦)م والشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) م ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) م، واتجاه ديني قومي وكان ابرز من مثله عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨-١٩٠٢) م، واتجاه قومي – تاريخي انعكست ملامحه في كتابات الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٨١) م وبطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣)م، واتجاه اجتماعي – تقدمي مثله شبلي الشميل (١٨٥٠-١٩١٧) م وقاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) م وأديب اسحق (١٨٥٦-١٨٨٤) م وجميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦) م، والاتجاه القومي الصرف والذي تمثل في

٨٩- للتفاصيل عن تلك التطورات يراجع: محمد عصفور سلمان، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي ١٨٣٩-١٩٠٨، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٦.
٩٠- للتفاصيل يراجع: عبد الزهرة مكطوف، الفكر السياسي في المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٤، بغداد ٢٠٠١؛ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٧٧.

الآراء التي طرحها نجيب عازوري (١٨٨١-١٩١٦) م^{٩١} مع ظهور عدد آخر من المفكرين^(٩٢)

فضلاً عن تأسيس عدد من الجمعيات والمؤتمرات التي طالبت بحقوق العرب أبرزها جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥م والمؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣م والثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م.

رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣)^(٩٣)

ولد في طنطا ودرس في عام ١٨١٧م في جامع الأزهر ما يقارب ثمان سنوات، وأرسل إماماً مع البعثة العلمية المصرية إلى باريس بين الأعوام ١٨٢٦-١٨٣١م. فتعلم اللغة الفرنسية، وكان ميالاً إلى الترجمة والتأليف. تولى منصب مدير مدرسة الترجمة بعد عودته إلى القاهرة. ومدير مدارس أخرى عديدة منها التي في السودان عام ١٨٥٣م، ثم مديراً للمدرسة الحربية في عهد سعيد باشا.

تولى إدارة جريدة "روضة المدارس" الصادرة عام ١٨٧٠م وتخرج من تحت يديه عدد من المهندسين والأساتذة والمترجمين. ومن أبرز أثاره "خلاصة البريز في تاريخ باريز" وفيه شرح لرحلته إلى فرنسا، و "التعريفات الشافية لمريد الجغرافية" مجلد ضخم ترجم من الفرنسية إلى العربية لتدريسه في المدارس المصرية، وكتاب "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين"

٩١- للتفاصيل يراجع: د. إبراهيم خليل العلاف، تاريخ الفكر القومي العربي منذ البواكر الأولى لنشوء الأمة العربية، بغداد ٢٠٠٢، جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ نشوء القومية العربية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦.

عبد الزهرة مكطوف، المصدر السابق.

٩٢- أمثال: رزق الله حسون (١٨٢٥-١٨٨٠)، فرنسيس فتح الله مراش (١٨٣٦-١٨٧٣)، أديب اسحق (١٨٥٦-١٨٨٥)، فرح أنطوان (١٨٧٤-١٩٢٢)، أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩-١٩٠٩)، رفيق العظم (١٨٦٧-١٩٢٥)، عبد القادر المغربي (١٨٦٧-١٩٥٦)، عبد الحميد بن باديس.

٩٣- للتفصيل يراجع: أحمد بدوي، رفاعة رافع الطهطاوي، القاهرة، ١٩٥٠؛ جمال الدين الشيال، رفاعة رافع الطهطاوي، القاهرة ١٩٥٨م؛ ألبرت حوراني، المصدر السابق، ص ٩١-١٠٠؛ عبد الكريم حسين الشيباني، اتجاهات التحديث عند المفكر العربي رفاعة رافع الطهطاوي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية ١٩٨٩.

وهو مجلد واحد ألفه للتعليم في مدارس البنات وله كتاب في النحو والأدب وأمور الدين والقانون والتاريخ والتعليم وفي الطب له "رسالة في الطب".

كان الطهطاوي يعد من أعلام النهضة العلمية في مصر. توفي في القاهرة عام ١٨٧٣م، وكانت الأعوام التي قضاها في باريس أهم أعوام حياته، إذ تعلم اللغة الفرنسية، واطلع على كتب التاريخ والفلسفة والجغرافية والرياضيات والمنطق، كما قرأ سيرة نابليون، وبعض الشعر الفرنسي. ومن المهم أن نذكر أنه اطلع على الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر بقراءة مؤلفات فولتير وكوندياك وروسو ومونتسكيو، ولقد ترك عصر التنوير الفرنسي أثراً دائماً في تفكير رفاة الطهطاوي.

كان رفاة الطهطاوي يؤكد إن حب الوطن أساس الفضائل السياسية. وفي ذلك قوله "إن محبة الوطن تؤدي إلى دماثة الأخلاق".

وقد نشر بعد عودته إلى مصر بقليل كتاباً بعنوان "خلاصة الأبريز في تاريخ باريز" وصف فيه إقامته في باريس وترجم إلى اللغة التركية، وفي عام ١٨٣٦م عين رئيساً لمدرسة اللغات الجديدة، وتدريب الموظفين على كيفية الترجمة، وأصبح عضواً في بعض اللجان التربوية، ورئيساً لتحرير جريدة الوقائع المصرية.

ولكن عمله الأهم كان في قسم الترجمة. ففي عام ١٨٤١م الحق بالمدرسة مكتب للترجمة عهدت إدارته إليه، فترجم ما يقرب من عشرين كتاباً في الجغرافية والتاريخ والعلوم العسكرية فضلاً عن إشرافه على المترجمين الآخرين.

استمر في عمله لإدارة مكتب الترجمة والذي أصبح مهمته الرئيسية. فترجم مجموعة القوانين الفرنسية إلى اللغة العربية، وصادر منذ عام ١٨٧٠م حتى وفاته مجلة لوزارة التربية وكتب فيها عدداً من المقالات، ووضع عدداً من المؤلفات منها: المرشد الأمين للبنات والبنين، وكتاب عام عن المجتمع المصري عنوانه "مناهج الأبواب المصرية في مناهج الآداب العصرية" ومجلدين عن تاريخ مصر الكامل.

وأكد الطهطاوي في كتابه " المرشد الأمين للبنات والبنين " على أهمية التعليم، وان يكون التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي على مستوى رفيع وجيد، وان يشجع الطلاب على الاستمرار في الدراسة، وان تعليم البنات كتعليم البنين على قدم المساواة. وقد وضع الكتاب بأمر من وزارة التربية لتعليم البنات والبنين.

ورأى الطهطاوي إن غاية التربية تكوين الشخصية لا مجرد حشر عقل الطالب بالمعلومات، والتأكيد على حب الوطن الذي هو الدافع الأكبر للناس وعلى محاولة بناء مجتمع متمدن. وان الحرية الفردية وحدها هي التي تخلق مجتمعاً حقيقياً وحباً للوطن أقوى.

فرح أنطوان (١٨٧٤-١٩٢٢) م^(٩٤)

نادى بأفكار تعد متقدمة بالنسبة لظروف المجتمع العربي في العصر الذي عاش فيه. فقد كان مؤمناً بان مبادئ الثورة الفرنسية، الحرية والإخاء والمساواة، كفيلة بعلاج المساوئ القائمة في المجتمع.

واعتقد بان الحكم الليبرالي الذي يخضع فيه الحاكم للقوانين التي يشرعها مجلس يمثل الشعب هو الأساس في النظام السياسي. لان الشعب أوسع حكمة وأكثر دراية من أي حاكم بمفرده، وذكاؤه أدق من ذكاء الحاكم الفرد. لذلك يجب أن يكون مجلس ممثلي الشعب أعلى من أي سلطة أخرى بما فيها السلطات الدينية وسلطة الحاكم نفسه وهذا لا يتم إلا بفصل الدين عن السياسة وتحول الدولة إلى دولة قومية علمانية. أي فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية.

٩٤ - للتفاصيل يراجع: عبد الزهرة مكطوف الجوراني، المصدر السابق، ص ١٢٧-١٣٢؛ ألبرت حوراني، المصدر السابق، ص ٣٠٣-٣١٠.

وذكر فرح أنطوان في كتابه "ابن رشد وفلسفته" انه ينبغي بان يحترم كل فريق رأي غيره ومعتقده.

امن فرح أنطوان أيضاً بالاشتراكية. ويعتقد إن الدولة التي تركز على هذه المبادئ قادرة على تحقيق الوحدة الوطنية والسلام بين الشعوب فهو يرى إن الاشتراكية ستكون في المستقبل الوسيلة التي توصل إلى الحرية والمساواة والعدالة والإخاء والازدهار والسعادة بين مواطني كل شعب والتقارب والتفاهم والتسامح والتضامن والسلم بين جميع شعوب العالم.

إن أفكار فرح أنطوان هذه قادته إلى مواقف فكرية وعملية تجاه مشكلات الواقع الذي كان يعيشه. فأدان استبداد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) م ودافع عن الحرية والديمقراطية والمساواة وأراد للدولة العثمانية أن تكون دولة علمانية ولمجلس النواب العثماني، بعد الإطاحة بعبد الحميد الثاني أن يكون أعلى سلطة في الدولة.

وأكد فرح أنطوان نزعتة العثمانية ذلك انه كان يدعو إلى المحافظة على الرابطة العثمانية والى بقاء الحكم في آل عثمان وكل ما كان يريده هو إصلاح أحوال الدولة العثمانية على أساس عثماني قومي وعلى أساس دستوري انتخابي يقوم على فصل السلطات.

وفي موقفه من المرأة فقد كان فرح أنطوان يرى إن واجب المرأة " ينحصر في تربية الأطفال والتدبير المنزلي وفي دور إرضاء زوجها" ولكنه دعا إلى تعليم المرأة وتربيتها وإعدادها لتقوم بالدور الذي أوكلته الطبيعة لها وهو دور الام.

عمل فرح أنطوان في عام ١٨٩٧م على إصدار مجلة "الجامعة" في مصر والتي أسهمت في اطلاع القارئ العربي على احدث اتجاهات الفكر الفلسفي والسياسي والاجتماعي في أوروبا. وبهذا يكون أدى دوراً ملحوظاً في تنبيه الأذهان، وأسهمت أفكاره مع التيارات الفكرية الأخرى في أغناء الفكر السياسي العربي في تلك المرحلة

من تاريخ الأمة العربية، وفي إرساء الأساس الفكري، الذي قامت عليه حركة التحرر العربية الحديثة.

كان فرح أنطوان كاتباً وأديباً مرموقاً في المشرق العربي، وترجم أشهر الروايات، انتقل من طرابلس إلى القاهرة عام ١٨٩٧م، وقضى حياته ينتقل بين مصر ونيويورك رئيساً لتحرير عدة مجلات عربية، وبشكل خاص مجلة "الجامعة".

الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) م^(٩٥)

ولد محمد عبده في قرية نصر على ضفاف نهر النيل عام ١٨٤٩م، دخل الكتاتيب، ثم درس في الجامع الأحمدى في طنطا لتلقي العلوم الدينية وهو في الثالثة عشرة من عمره، ثم أرسل للدراسة في الجامع الأزهر، وهناك التقى بأستاذه جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٦) م.

مكث محمد عبده في الأزهر بين سني ١٨٦٩ و ١٨٧٧ م واستهوته دروس المنطق والفلسفة، وفي هذه المدة نشر مجموعة من المقالات السياسية والاجتماعية في جريدة الأهرام، وبعد إنهاء دراسته أصبح أستاذاً في الأزهر. أسهم محمد عبده في تحرير جريدة الوقائع المصرية، واشترك في ثورة احمد عرابي عام ١٨٨١م وسانده، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر القي القبض عليه وحكم عليه بالنفي، واختار بيروت للإقامة والتدريس في مدارسها، ثم التحق بالأفغانى في باريس فاصدرا مجلة العروة الوثقى في ١٣ آذار ١٨٨٤م.

٩٥- للتفصيل عن الشيخ محمد عبده يراجع: أمين عثمان، راند الفكر المصري الإمام محمد عبده، القاهرة ١٩٥٥ ; ألبرت حوراني، المصدر السابق، ص١٦٢-١٩٧ ; قدري قلجى، محمد عبده بطل الثورة الفكرية في الإسلام، بيروت ١٩٥٤ ; محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، ثلاثة أجزاء.

اطلع الشيخ محمد عبده خلال وجوده في باريس على جوانب من الحضارة الأوروبية وأتقن اللغة الفرنسية، وزار لندن عام ١٨٨٤م، ثم سافر إلى تونس ومنها إلى مصر، ثم عاد إلى بيروت فبقى ثلاث سنوات يدرس في بعض المدارس الحديثة.

وفي عام ١٨٨٨م سمح له الخديوي توفيق بالعودة إلى مصر، وعين قاضياً في المحاكم الأهلية ثم مفتياً للديار المصرية عام ١٨٩٩م واستمر كذلك حتى وفاته عام ١٩٠٥م.

أما أفكاره فقد رأى محمد عبده إن الطريق إلى نهضة العرب والمسلمين لا يتم إلا بعد تحرير المجتمع من الداخل والخارج. ففي الداخل يتطلب العمل على محاربة كل أنواع الاستبداد والعمل من أجل الحرية، مع التأكيد على أهمية الشورى في حياة المجتمع لاسيما في الجانب السياسي. وان تحرير المجتمع لا يتم إلا بإصدار تشريعات عادلة تعكس عادات وتقاليد وعقيدة المجتمع، أي أن التحرير يشمل كل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما بشأن تحرير المجتمع من الخارج. فلقد اتفق الشيخ محمد عبده مع أستاذه الأفغاني على ضرورة التخلص من النفوذ الاستعماري، ومن هنا يلتقي هدف تحرير المجتمع من الداخل مع هدف التحرير من الخارج، وانه من الضروري العمل على القضاء على مظاهر وأسباب الضعف والتخلف.

كانت المهمة التي اضطلع بها الشيخ محمد عبده ذات شقين: الأول تنقية الدين الإسلامي من الشوائب التي طرأت عليه وتحديد ماهية الحقيقة. والثاني تقريب المسلمين من مقتضيات التمدن الأوربي الحديث العلمية والسياسية والاقتصادية. وحين كان مفتياً شكلت لجنة برئاسته لإصلاح التعليم في الأزهر، وإدخال العلوم الحديثة إلى مناهجه الأساسية. والاستفادة من الحضارة الأوروبية وانجازاتها التي لا تتناقض والإسلام الذي يفتح صدره للعلم ويدعو إليه. لان العلم يكشف أسرار الكون. والشيخ محمد عبده في تفسير هذا كما يقول الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى، يحاول التوفيق

بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة ويتبع طرقاً " من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم.

وبذلك عند الشيخ محمد عبده من كبار رجال الإصلاح والتحديث في الوطن العربي "زعيم النهضة الإصلاحية" وفي احد مقولاته الرائعة التي تبين ان الإسلام الحقيقي هو أساس التطور والتقدم يقول " ذهبت إلى بلاد الفرنج (أوروبا) فوجدت الإسلام ولم أجد المسلمين، وجئت إلى بلاد الإسلام فوجدت المسلمين ولم أجد الإسلام ". فلنقرأ هذه الجملة ونفهم أهمية ودور تعاليم الإسلام ودستور المسلمين "القران الكريم.

جمعية بيروت السرية (٩٦)

تأسست في بيروت عام ١٨٧٥م من قبل خمسة من الشبان من خريجي الجامعة السورية الإنجيلية، وتأسست للجمعية فروع في دمشق وصيدا وطرابلس الشام، وكان من ضمن أعضاء الجمعية إبراهيم اليازجي، د.فارس نمر، ويعقوب صروف، وشاهين مكاريوس، وتوسعت الجمعية فامتدت لها فروع في السويداء وطرابلس، وتمثل الهدف الأساسي للجمعية في حصول بلاد الشام على حكم ذاتي مستقل عن الدولة العثمانية، فكانت تلك أول "صيحة صريحة في بلاد العرب تدعو إلى التحلل من حكم الدولة العثمانية"

وأصدرت جمعية بيروت السرية ثلاثة منشورات أهمها الأخير، الصادر في ٣١ كانون الأول ١٨٨٠م، لأنه كان أول بيان مدون عن برنامج العرب السياسي حدد مطالبهم، وتضمن المنشور استقلال سوريا ولبنان متحدتين، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية وإلغاء الرقابة على حرية الكلام والصحافة، وعدم استخدام الجيش المحلي خارج حدود سوريا ولبنان إلا في الظروف القصوى والحالات الاستثنائية. وكانت هذه المنشورات التي ألصقت على الجدران تتضمن إثارة الروح الوطنية في نفوس سكان المشرق العربي، وعبرت تلك المنشورات الثلاثة بوضوح تام عن التذمر من السلطة

٩٦- للتفاصيل يراجع: جورج انطونيوس، المصدر السابق ; عبد الزهرة مكطوف ، المصدر السابق.

العثمانية وسياستها تجاه سكان ولايات المشرق العربي، وفيها تحريض واضح على الانتفاضة، والتمسك الشديد بمفاخر العرب ولغتهم والتأكيد على طاقتهم وحقوقهم، وتشير مضامين المنشورات إلى المراحل الأولى من تكوين الفكر القومي العربي.

وتضمنت المنشورات أيضاً للمرة الأولى في التاريخ العربي الحديث بروز الدعوة إلى "الوطن السوري" وكانت تبدأ بالنداء "يا أبناء سوريا" و "يا أهل الوطن" وتذكر المنشورات بالنخوة العربية و "استقلال نشترك فيه مع إخواننا اللبنانيين" وينتهي احد المنشورات بإيراد بعض الأبيات من القصيدة البائية المشهورة لإبراهيم اليازجي: تنبهوا واستفيقوا أيها العرب" التي كانت الناشئة العربية تتغنى بأبياتها الحماسية.

وكانت منشورات الجمعية "الوثيقة الوحيدة في ذلك العصر التي ترسم لنا صورة حقيقية عن طبيعة القومية العربية واتجاهاتها في تلك الأيام الأولى" وفي دورها في نمو الوعي الفكري، السياسي في المشرق العربي، وكانت الجمعية "أول جهد منظم في الحركة السياسية العربية" وان مطالبها أول تعبير عن الأهداف السياسية إذ طالب مؤسسوها بتأسيس الدولة الحديثة المستقلة سياسياً بوجود الجيش الوطني.

وكانت دعوتها من خلال المنشورات قد خلقت في نفوس الشباب العربي الناشئ الأثر العميق بما تضمنته من نداءات حماسية. فقد تناول المنشور الأول الصادر في ٣ تموز ١٨٨٠م تذكر الأمجاد العربية، وفي أعلى المنشور شعار يمثل سيفاً مسلولاً كتب تحته البيت الآتي :

لنظلمن بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبه ارب

وفي كل الأحوال فقد شكلت أفكار جمعية بيروت السرية خطوة انتقال للعمل القومي من المجال الفكري الثقافي إلى المجال السياسي وان الفكرة السياسية العربية في صورتها البسيطة قد ظهرت على أيدي مؤسسي جمعية بيروت السرية.

هذا وقد اعتبر تأسيس الجمعية بمثابة تدشين بداية مهمة لاسلوب جديد في النضال تبعها تطور كمي ونوعي ذو تأثير فعال على النضال التحرري وبلورة الفكر القومي – الوطني في المشرق العربي.

الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨ م

إن الانقلاب الدستوري (الانقلاب العثماني) الذي تم في ٢٤ تموز ١٩٠٨ م قامت به مجموعة من الضباط التي تنتمي إلى جمعية الاتحاد والترقي وعلى رأسها أنور ونيازي، وقد تمخضت العملية الانقلابية عن تظاهر السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) م باستجابته لمطالب الانقلابيين بإعادة دستور عام ١٨٧٦ م المعطل منذ عام ١٨٧٧ م. والسير بموجب شعارات الحرية والمساواة والعدالة. وسرت من جراء ذلك موجة من الفرح والابتهاج في معظم أرجاء الدولة العثمانية أملاً في بداية عهد جديد تترجم فيه شعارات الاتحاديين إلى واقع ملموس، وقد نشط الاتحاديون في الدعاية لمبادئهم عن طريق التوعية السياسية وتمثلت هذه بمختلف فروع جمعية الاتحاد والترقي التي افتتحت في شتى أرجاء الدولة العثمانية، كما استعانت الجمعية بالصحف والمجلات لنشر أهدافها السياسية، وعملت كذلك على فتح النوادي والمدارس وعينت معلمين ودعاة من بين أعضائها يلقتون الطلاب أهداف ومبادئ الاتحاديين.

نشرت جمعية الاتحاد والترقي برنامجها السياسي في أواخر أيلول ١٩٠٩ م، وقد أكدت الجمعية على أن تبقى التركية اللغة الرسمية في الولايات العثمانية، بما فيها الولايات العربية، وتتبع الدولة سياسية تعليمية ترمي إلى تربية النشء العثماني والى فتح مدارس تضم عناصر الدولة المختلفة في تعليم مشترك للوصول إلى التربية الموحدة.

وقد استبشر العرب خيراً بالعهد الجديد "وانضم الكثيرون إلى جمعية الاتحاد والترقي"، وتميزت المرحلة الأولى بعد الانقلاب الدستوري بأجواء الأمل والحماسة وبظهور عوامل جديدة ومؤثرة في اتجاهات الفكر السياسي في الوطن العربي.

وتصورت الغالبية إن عهداً جديداً قد حل في الدولة العثمانية، وأبدت للتعاون مع الاتحاديين في تحقيق شعاراتهم التحررية. لاسيما الدستور الذي أعلنت الدولة أعادته قد كفل مدى معيناً من حرية الفكر والنشر والتنظيم السياسي.

وقد عزز إعلان الدستور مواقع العناصر الداعية إلى البقاء ضمن الدولة العثمانية وزاد نفوذها بحيث هيمنت تلك العناصر على الساحة السياسية العربية.

ومال الأحرار من العرب وغيرهم في اسطنبول والولايات العربية في تلك المدة إلى تشكيل جمعيات تساند جمعية الاتحاد والترقي. فظهرت في أيلول ١٩٠٨م جمعية الإخاء العربي - العثماني. وقد نصت المادة الأولى من المنهاج السياسي لهذه الجمعية على مساندة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام الدستور وجمع كلمة العناصر العثمانية المختلفة. ولكن الاتحاديين لم يلبثوا أن خيبتوا الأمم والشعوب غير التركية في الدولة العثمانية عندما تخلوا عن الشعارات التي رفعوها أثناء سعيهم من أجل السلطة وعلى رأسها المساواة بين شعوب الدولة المختلفة.

ولقد بدا الوجه الحقيقي للاتحاديين يتضح بعد محاولة الانقلاب المضاد في عام ١٩٠٩م إذ أخذوا يتخلون عن وعودهم لشعوب الدولة غير التركية بل ويعملون على مكافحة النزعات القومية لدى هذه الشعوب وكانت سياستهم من هذه الناحية تزداد شدة وقسوة مع الوقت إلى إن تحولت بعد عام ١٩١٣م إلى سياسة شوفينية ظاهرة تسعى إلى تتركيب الشعوب غير التركية في الدولة. وركز الاتحاديون جهودهم في هذا المجال على العرب بشكل خاص باعتبارهم أكبر الأمم القاطنة في الدولة. وقد حدد الكاتب التركي المعروف جلال نوري مهمات الاتحاديين في كتابه "تاريخ المستقبل" على النحو الآتي : "إن المصلحة تقضي على حكومة الاستانة (اسطنبول) بإكراه السوريين على ترك أوطانهم وإن بلاد العرب لاسيما اليمن والعراق يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية وللدفاع عن كياننا يجب أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية".

ومن الطبيعي إن يخلق ذلك رد فعل لدى العرب الذين رأوا أن أمالهم التي علقوها على الدستور والاتحاديين خابت رجاؤهم بتطوير الدولة العثمانية وتحويلها إلى دولة ديمقراطية باء بالفشل. وكان من ابرز مظاهر رد الفعل هذا اتساع النزعة القومية لدى العرب وتعمق الشعور القومي وترسيخه وزيادة مساعي العرب المناهضة للسيطرة العثمانية. وكانت هذه المساعي هي أيضاً تزداد وتتسع مع الوقت بمقدار ما كانت تزداد السياسة العنصرية التي كان الترك يمارسونها ضد العرب حتى انتقل القوميون العرب في الأعوام اللاحقة من التأييد الكامل لجماعة تركيا الفتاة^(٩٧) إلى القطيعة الكاملة معها.

وهكذا اتسع شعور العرب القومي وازداد إدراكهم بأنهم أمة قائمة بذاتها منفصلة عن الأتراك لها خصائصها القومية وأهدافها الخاصة ووطنها الخاص، وهيمن الفكر القومي على الساحة الفكرية في المشرق العربي^(٩٨) وبدا القوميون العرب يخرجون في دعواتهم القومية عن الإطار الديني الذي كان الطابع المهيمن للحركة القومية في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد انقسم قادة الفكر العربي إلى اتجاهين أساسيين يدعو احدهما إلى تعزيز الرابطة العثمانية وانطلاقاً من الوحدة الدينية بين العرب والأتراك، وكان ذلك ما اقره المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣م. والاتجاه الثاني يدعو إلى قيام كيان عربي مستقل عن الدولة العثمانية.

٩٧- للتفصيل عن الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨م يراجع: ارنست رامزور، ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨، ترجمة صالح احمد العلي، بيروت ١٩٦٠؛ جورج انطونيوس، المصدر السابق.
٩٨- كان ذلك لكون أقطار المغرب العربي ومصر وليبيا قد خضعت للاحتلال الأجنبي وانفصلت عن الدولة العثمانية، في حين إن الدولة العثمانية كانت لها السيادة على المشرق العربي

المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ م

ازداد اضطهاد الاتحاديين للحركة القومية العربية، الأمر الذي دفع قادة هذه الحركة إلى نقل نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية، وانطلاقاً من الحاجة في تعريف الرأي العام العالمي بمطالب العرب القومية، ورغبة منهم في توحيد جهود الشباب العربي ونضالهم. لذلك عمل فئة من المثقفين والطلاب العرب الذين يدرسون في باريس ومنهم عبد الغني العريسي وتوفيق فايد من بيروت، وعوني عبد الهادي من نابلس، ومحمد المحمصاني من بيروت، وجميل مردم من دمشق، وتوفيق السويدي من بغداد. على عقد مؤتمر في باريس لمحاولة توحيد كافة القوى القومية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة العثمانية والعمل على نشر أخبار القضية العربية خارج الولايات العثمانية.

تألفت لجنة تحضيرية للمؤتمر مؤلفة من عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي ومحمد طيارة وجميل مردم ومحمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعروف، تأخذ على عاتقها الاتصال بالمنظمات القومية والشخصيات العربية البارزة لحضور المؤتمر. لقد كانت أولى خطوات اللجنة التحضيرية للمؤتمر اتصالها بحزب اللامركزية في القاهرة وعرضها عليه تبني المؤتمر ورائسته لأنه كان يضم رجالاً بارزين في الحركة القومية العربية.

استجاب عدد من قادة الحركة العربية للنداء وتوجهوا إلى باريس وحضروا المؤتمر، ومن ابرز الذين حضروا المؤتمر عبد الحميد الزهراوي نائب حماة في مجلس المبعوثان، والشيخ احمد حسين طيارة صاحب جريدة الإصلاح اليومية في باريس والدكتور أيوب ثابت سكرتير الجمعية الإصلاحية في بيروت، وتوفيق السويدي طالب عراقي يدرس القانون في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي، وجميل مردم طالب سوري يدرس القانون في باريس.

أذاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر بياناً إلى الأمة العربية جاء فيه ان عقد المؤتمر جاء نتيجة لما يجري في الأقطار العربية من أحداث، وعدم إعطاء الحكومة العثمانية للعرب حقوقهم في الحكم اللامركزي ضمن إطار الدولة العثمانية.

وقد وجه البيان ندائه إلى العرب قائلاً: "إننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيراً أو كبيراً أن يلبي داعي الوطن لاسيما أرباب الزعامات في مقاعد الجمعيات فعليهم نعتد واليهم نتجه". وقد حددت اللجنة التحضيرية الموضوعات التي سوف يبحثها المؤتمر ومن أبرزها، مناقشة حقوق العرب في الدولة العثمانية وضرورة إصلاح أوضاعهم.

عقد المؤتمر أربع جلسات رسمية في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين ١٨-٢٣ حزيران عام ١٩١٣م. وانتخب عبد الحميد الزهراوي رئيساً له، وقد حضر المؤتمر نحو مائتان وخمسون مندوباً يمثلون الأقطار العربية، وتلقى بركات تأييد من شخصيات ومنظمات قومية عديدة في الوطن العربي، وقد اتخذ المؤتمر عدداً من المقررات، أكدت ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، على أن يكون لهم دور في إدارة الدولة، وان يفسح المجال لهم لتحقيق أمانهم القومية، وان تكون اللغة العربية رسمية في الولايات العربية، وان تكون الخدمة العسكرية في الولايات العربية إلا في الظروف الاستثنائية، كما أكدت ضرورة الدفاع عن الأقطار العربية من أي عدوان خارجي، وقد ناقش المؤتمر قضية مستقبل الدولة العثمانية، واشتد الجدل حولها، ولكن المؤتمر أكد على وحدة الدولة، وشرط الاعتراف بحقوق العرب الكاملة كشركاء فيها. والحق بمقررات المؤتمر شروط نصت على إن الأعضاء المنتمين الى الجمعيات يمتنعون عن قبول أي منصب حكومي في الدولة العثمانية الا بموافقة جمعياتهم، كما إن مقررات المؤتمر ستكون بمثابة البرنامج السياسي للعرب القوميين في تعاملهم مع الحكومة العثمانية، وسوف لايسمح لأي عربي ان يرشح نفسه للانتخابات إلا إذا تعهد بتأييد هذا البرنامج والسعي لتنفيذه.

إن مقررات المؤتمر المتعلقة بالدعوة إلى الإصلاح والمساواة كانت من القوة والتأثير بحيث أجبرت الحكومة العثمانية على إعلان قبولها لتلك المقررات أو التظاهر بقبولها، وقد أرسلت جمعية الاتحاد والترقي سكرتيرها العام مدحت شكري بك إلى باريس للتفاوض مع رجال المؤتمر في مطالبهم، وفتحت أبواب المفاوضات ووقع مدحت شكري بك اتفاقاً مع عبد الحميد الزهراوي وافق فيه تقريباً على معظم مقررات المؤتمر، وصادق السلطان رشاد في ٨ آب ١٩١٣ م على الاتفاق وصادر مرسوم سلطاني بذلك، ولكن اتضح للعرب بما لا يقبل الشك إن الاتحاديين ما كانوا مخلصين في نواياهم، إذ سلطوا على المؤتمر أقلام أنصارهم من ذوي النزعة العثمانية، فهاجموا المؤتمر واتهموا أعضائه بالخيانة وقالوا إن غاية أولئك تسليم البلاد إلى الأجانب والقضاء على الدولة والإسلام، وطالبوا بإبقاء الحال في الولايات العربية على ما هو عليه، ولم يكتف الاتحاديون بذلك بل اتخذوا جملة من المقررات السرية في كانون الثاني عام ١٩١٤ م منها : مقاومة دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية وإلغاء الجمعيات العربية كلها ومراقبة نشاطاتها وإبعاد الضباط العرب عن اسطنبول، وتولي القيادة في الولايات العربية إلى الضباط الأتراك من العثمانيين والإسراع في تنفيذ سياسة التتريك وتعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية ومطاردة العرب الذين يعملون ضد الاتحاديين.

وبذلك نلاحظ إن الحكومة العثمانية قد أخلت بالاتفاق الذي عقد بين مدحت شكري بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي وعبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر في إعطاء العرب حقوقهم الطبيعية التي اقرها المؤتمر. وبدأت مرحلة جديدة في العلاقات العربية - التركية عند قيام الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية في الرابع من تشرين الثاني ١٩١٤ م الحرب إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر^(٩٩)

٩٩- للتفصيل عن المؤتمر العربي في باريس يراجع: إبراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦ ; جورج انطونيوس، المصدر السابق ; عبد الزهرة مكطوف، المصدر السابق.

الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ (١٠٠)

كان لسياسة القمع والإرهاب التي اتبعتها الاتحاديون اثر كبير في ابتعاد العرب عن الدولة العثمانية، وانصراف تفكيرهم إلى التخلص نهائياً من الحكم العثماني، فضلاً عن سياسة الاتحاديين الاقتصادية التي تمثلت بمصادرة المحاصيل وفرض الإعانات للجيش باسم " التكاليف الحربية " ونقل الكتائب العسكرية العربية إلى مناطق بعيدة في جبهات القتال، وزاد الأمر سوءاً انتشار الأمراض والمجاعات في ولايات عربية عديدة. لم تبد الحكومة العثمانية اهتماماً بمعالجة هذه الأمور مما دفع قادة الجمعيات العربية القومية إلى التفكير في إعلان الثورة ضد الحكومة العثمانية.

ولقد تحققت في دمشق اتصالات عديدة بين جمعيتي العربية الفتاة والعهد العسكرية للتخطيط للقيام بالثورة، وتم التوقيع في ربيع عام ١٩١٥م على ما يسمى "ميثاق دمشق" وكان الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة طرفاً في ذلك الميثاق نائباً عن والده ، الحسين بن علي ملك الحجاز، الذي رشحه القوميون العرب زعيماً للثورة المنتظرة لما يتمتع به من ميزات تؤهله لذلك لعل أبرزها نسبه للرسول محمد بن عبد الله (ﷺ) وموقع الحجاز السوقي البعيد عن مراكز تحشد الجيوش وطرق المواصلات، ومركزه شريفاً لمكة.

تطلع الشريف حسين بن علي إلى بريطانيا لمساعدته في الثورة ضد الدولة العثمانية، وجرت مراسلات بينه وبين هنري مكماهون القنصل البريطاني في مصر (١٠١) تركزت في المساعدات التي ستقدمها بريطانيا للشريف حسين بن علي في القضاء على الحكم العثماني في بلاد الشام مقابل جعله ملكاً للدولة العربية التي تم وضع حدودها في تلك المراسلات.

١٠٠- للتفاصيل عن الثورة العربية يراجع: جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ٢٧٦-٣٤٦. ; أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ، دت
١٠١- للتفاصيل عن المراسلات يراجع: جورج انطونيوس ، ص ٢٥١-٢٧٥

وفي تموز ١٩١٥م اختتمت المفاوضات بين البريطانيين والشريف حسين بن علي وتم الاتفاق النهائي لمباشرة العمل المشترك ضد الدولة العثمانية بشرط اعتراف بريطانياً ببنود ميثاق دمشق وإعلان حكومة عربية، ثمناً لدخول العرب الحرب بجانب بريطانيا. وقد بني الميثاق على بضعة أسس يهمنها ما يلي:

”اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية:

شمالاً: خط مرسين – أضنه الموازي لخط العرض ٣٧ درجة شمالاً، ثم على امتداد حدود فارس إلى الخليج العربي جنوباً: المحيط الهندي (باستثناء عدن التي تظل على ما هي عليه في الوقت الحاضر) وغرباً: على امتداد البحر الأحمر ثم البحر المتوسط حتى مرسين.. وإعطاء بريطانيا العظمى الأفضلية على غيرها من الدول في المشاريع الاقتصادية.

وبضوء ذلك الاتفاق أعلن الشريف حسين الثورة الكبرى في ١٠ حزيران ١٩١٦م حينما أطلق الرصاصة الأولى من شرفه داره في مكة إيداناً ببدء العمليات العسكرية ضد القوات العثمانية، وأعلن استقلال الحجاز، وتكوين جيش عربي، واستمرت الثورة سنتين، اكتسحت فيها القوات العربية، بدعمها المساعدات البريطانية لمعظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز، وأسهمت بشكل فعال إلى جانب قوات الحلفاء في تحرير بلاد الشام من القوات العثمانية، ودخول دمشق في أوائل تشرين الأول ١٩١٨م وإعلان تشكيل الحكومة العربية برئاسة الأمير فيصل بن الحسين^(١٠٢).

أما العراق فقد تعرض لغزو القوات البريطانية التي استفادت من إعلان الدولة العثمانية الحرب عليها في ٢٩ تشرين الأول عام ١٩١٤م لتوسيع سيطرتها على المناطق التي كانت تتطلع إليها منذ وقت بعيد. لذلك أقدمت على تسيير حملة عسكرية احتلت البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤م وبغداد في ١١ آذار ١٩١٧م والموصل في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨م.^(١٠٣)

١٠٢ - للتفاصيل عن الحكومة العربية يراجع: خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨-١٩٢٠.
١٠٣ - للتفاصيل عن العراق في سنوات الحرب يراجع: شكري محمود نديم، العراق في سنوات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨.

ولقد وجدت بريطانيا منذ بدء الحرب إن مطامعها في الأقطار العربية لا بد وان تصطدم بمطامع فرنسا، لاسيما وان هذه الأقطار تمثل درعاً واقياً لمستعمراتها في الهند، فضلاً عن كون أراضيها مقراً لحقول النفط الغنية، ولذلك بدأت المفاوضات بين الطرفين، فرنسا وبريطانيا، وفي الوقت التي كانت تتفاوض فيه مع الشريف حسين، وكانت تهدف وراء ذلك إلى أمرين اثنين : محاولة تكوين دولة عربية أو اتحاد عربي موال لهم وثانيهما: تحديد المنافع الإقليمية التي يمكن أن تحصل عليها فرنسا وبريطانيا إذا ما انتهت الحرب بنجاح إلى جانب الحلفاء.

ولتحقيق ذلك وقع الطرفان، بريطانيا وفرنسا في ٢٦ نيسان ١٩١٦م اتفاقية سايكس بيكو^(١٠٤)، لتقسيم البلاد العربية في المشرق، كما وحصل الصهاينة على وعد في تشرين الثاني عام ١٩١٧م (وعد بلفور)، من الحكومة البريطانية على دعم المشروع الصهيوني بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى خسرت الدولة العثمانية كل ولاياتها العربية التي أصبحت آنذاك تحت سيطرة الدول الأوروبية الكبرى لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العرب المعاصر تشتمل بنضال الشعب العربي ضد المحتلين الأوروبيين للحصول على الاستقلال.

١٠٤ - للتفاصيل عن بنود الاتفاقية يراجع: جورج انطونيوس، المصدر الأسبق، ص ٣٤٧-٣٨٤.

((مصادر ومراجع الكتاب))

- إبراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦ ، الموصل ١٩٩١ .
- إبراهيم خليل احمد ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩-١٩٣٢ ، البصرة ١٩٨٢ .
- إبراهيم خليل العلاف ، تاريخ الفكر القومي العربي ، بغداد ٢٠٠٢ .
- احمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أو حملة نابليون بونابرت في مصر ، القاهرة ١٩٢٥ .
- احمد صادق الدجاني ، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، بيروت ١٩٧٦ .
- لحمد احمد الحتة ، تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير ، دار المعارف بمصر ١٩٥٠ .
- احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، د.ت.
- احمد بدوي ، رفاة رافع الطهطاوي ، القاهرة ١٩٥٠ .
- احمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨ .
- احمد عرابي ، كشف الستار عن سر الأسرار في الثورة العربية ، القاهرة ١٩٥٤ .
- احمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٢ ، القاهرة ١٩٦٦ .
- إحسان حقي ، المغرب العربي ، دار اليقظة العربية ، د.ت.
- ارنست رامزور ، ثورة تركيا الفتاة ١٩٠٨ ، ترجمة صالح احمد العلي ، بيروت ١٩٦٠ .
- ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٦ ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٧٧ .
- أمين عثمان ، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، د.ت.
- تيودور روستين ، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥-١٩١٠ ، بيروت ١٩٨١ .
- جلال يحيى ، الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- جمال الدين الشيال ، رفاة رافع الطهطاوي ، القاهرة ١٩٥٨ .
- جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٥١ .

- جمال هاشم احمد الذويب ، التطورات السياسية الداخلية في المغرب الأقصى ١٨٩٤-١٩١٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٨٩ .
- جميل موسى النجار ، تاريخ التعليم في العراق في العصر العثماني الأخير ، بغداد ٢٠٠١ .
- جورج انطونيوس ، يقظة العرب تاريخ نشوء القومية العربية ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، بيروت ١٩٦٦ .
- حسين محمد القهواتي ، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤ ، بغداد ١٩٨٠ .
- خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، ١٩٨١-١٩٢٠ .
- خيرية عبد الصاحب وادي ، الفكر القومي في المغرب العربي ، بغداد ١٩٨٢ .
- رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩ ، القاهرة ١٩٧٠ .
- رودلفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، ترجمة طه فوزي ، القاهرة ١٩٦١ .
- روبرير لشفيك ، تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، ترجمة حمادي الساحلي ، بيروت ١٩٨٨ .
- روفائيل بطي ، تاريخ الطباعة في العراق ، بغداد ١٩٩٢ .
- سليمان الصانع ، تاريخ الموصل ، جزأين ، القاهرة ١٩٧٢ .
- سمير أبو حمدان ، موسوعة عصر النهضة ، خير الدين التونسي ، بيروت ١٩٩٣ .
- سيار كوكب علي الجميل ، تكوين العرب الحديث ، ١٥١٦-١٩١٦ ، د.ت .
- شكري محمود نديم ، العراق في سنوات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ .
- صلاح العقاد ، المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ، القاهرة ١٩٨٠ .
- صبري كام هادي التميمي ، قناة السويس وأثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تاريخ مصر الحديث ١٨٦٩-١٩٣٦ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة ديالى ٢٠٠٥ .
- الطاهر احمد العزاوي ، ولاية طرابلس في بداية الفتح العربي حتى نهاية العهد التركي ، بيروت ١٩٧٠ .
- عبد الزهرة مكطوف ، تاريخ الفكر السياسي في المشرق العربي اواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٤ ، بغداد ٢٠٠١ .

- عبد الكريم حسين الشيباني ، اتجاهات التحديث عند المفكر العربي ، رفاعة رافع الطهطاوي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٨٩.
- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ثمانية أجزاء.
- عبد الرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٩١٧ ، بغداد ١٩٥٩.
- عبد الرزاق الحسيني ، تاريخ الصحافة العراقية ، بغداد ١٩٥٧.
- عباس ياسر الزبيدي ، تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى عام ١٩٣٦ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ١٩٧٥.
- علاء نورس ، العراق في العهد العثماني ١٧٠٠-١٨٠٠ ، بغداد ١٩٧٩.
- علي الجرتلي ، تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٢.
- عبد الرحمن الرفاعي ، الثورة العربية والاحتلال الانكليزي ، القاهرة ١٩٣٧.
- عبد الرحمن تشانجي ، المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١ - ١٩١٣ ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، تونس ١٩٣٧.
- عبد العزيز محمد الشفاوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء.
- عبد الكريم محمود غرايبة ، دراسات في تاريخ أفريقيا العربية ، دمشق ١٩٦٠.
- عبد الكريم رافق ، بلد الشام ومصر منذ الفتح العثماني حتى حملة نابليون على مصر ١٥١٧-١٧٩٨.
- علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ، بيروت ٢٠٠٦.
- عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي ، ١٧٢٦-١٨٣٤ ، النجف ١٩٧٥.
- فاروق عثمان أباطة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ ، القاهرة ١٩٧٦.
- فاروق عثمان أباطة ، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨ ، القاهرة ١٩٧٥.
- فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة الشيباني ، موسكو ١٩٧٧.
- قدرى قلنجي ، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين ، بيروت ١٩٥١.
- قدرى قلنجي ، محمد عبده بطل الثورة الفكرية في الإسلام ، بيروت ١٩٥٤.

- كاترين لانكلي ، تصنيع العراق ، ترجمة خطاب صكار العاني و محمد حامد الطائي ، بغداد ١٩٦٣ .
- لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط١ ، بغداد ١٩٨٦ .
- محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العنلية العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ .
- محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- محمد فؤاد شكري ، السودان والثورة المهدية ، الخرطوم ١٩٧٨ .
- مسعود مجاهد الجزائري ، تاريخ الجزائر ، د.ت.
- المنجي الشملي ، خير الدين باشا ، تونس ١٩٧٣ .
- محمود الخفيف ، احمد عرابي الزعيم المفترى عليه ، بيروت ١٩٨٤ .
- محمد عبد الله الشني ، تاريخ بني زيان ، د.ت.
- محمد عصفور سلمان ، تاريخ أوربا الحديث ١٧٨٩-١٩١٤ ، ديالى ٢٠١٠ .
- محمد عصفور سلمان ، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي ١٨٣٩-١٩٠٨ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ٢٠٠٥ .
- محمد عصفور سلمان ، العراق في عهد مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ ، بغداد ٢٠١٠ .
- ممدوح حقي ، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري ، بيروت ١٩٦٤ .
- محمد علي عبيدات ، محمد علي باشا والإستراتيجية العسكرية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، معهد التاريخ والتراث العربي ، بغداد ١٩٩٨ .
- محمد عبد اللطيف البحرأوي ، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩ ، دار السلام ١٩٧٨ .
- محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤-١٩٥٨ ، بيروت ١٩٦٥ .
- محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ محمد عبده ، ثلاثة أجزاء .
- محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال العثماني ، القاهرة ١٩٦٩ .
- مصطفى السيد سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٢٥ ، القاهرة ١٩٧٣ .
- وليم موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ١٢٦٠-١٥١٧ ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، القاهرة ١٩٦٩ .

رقم الإيداع في دارالكتب والوثائق الوطنية ببغداد (٦٩) لسنة (٢٠١١)